

الغزو

يختلف الغزو عن المناخ الذي تطول مدته ويهدف لاحتلال المراعي والموارد في أنه يستهدف نهب الإبل ويقصد منه الكسب السريع. إنه نوع فريد من أنواع الغارات الخاطفة متخصص في نهب الإبل مع الحد الأدنى من الخسائر في الأرواح. ويرتبط الغزو ارتباطا وثيقا مع الإبل ويشكل معها موضوعان متداخلان من مواضيع النسيج الكلامي، شعرا ونثرا، الذي يشغل به البدو وقتهم. والإبل بطبيعتها موائمة لأن تكون أداة لعمليات الغزو وهدفا لها في آن واحد. لولا قدرة الإبل على قطع المسافات الطويلة لما استطاع الغزاة أن يشنوا غاراتهم البعيدة، ولولا قدرة الإبل على الجري السريع لما استطاعوا نهبها وسوقها بالسرعة التي تمكنهم من الفرار بها من أهلها الذين لا يدخرون جهدا في محاولة استنقاذ إبلهم.

الحنشة والمعيار

الغزو متكيف في كل جانب من جوانبه مع حياة البدو ويمارسونه كمنشأ موسمي، مثله مثل الحراثة والزراعة عند الفلاحين. ليس الهدف من الغزو احتلال أرض أو سفك دم وإنما نهب الإبل، ويسميه البدو ممانع الوبره، مَناف الوبره، ويقصد بالتمازع والتناف ما يقومون به فيما بينهم من عمليات الخطف والسلب، أو كما يقولون شَعَط وَمَعَط، والوبره ترمز للإبل لأن الوبر يكسو جلودها. والسبب الباعث لكل حروبهم واقتتالهم هي الإبل، إما لنهبها أو لذبح الغزاة عنها، ولذا يقولون: جنوب الببل حراب. وعلينا أن نتنبه إلى أن الرعي ليس من المهام التي تحتاج إلى قوة عاملة كبيرة، ولذلك تتميز الحياة الرعوية بتوفر فائض في الأيدي العاملة. فلا يحتاج الذود الذي يتراوح عدده من ٦٠ إلى ٩٠ ناقة لأكثر من شخصين لرعيه والقيام عليه، إلا في حالات الخوف حينما يتطلب الذود جنبا يحمونه من الأعداء والغزاة. يمكن لهذا الفائض من الأيدي العاملة في الظروف السلمية أن يمارسوا أعمالا أخرى يحصلون منها على دخل إضافي مثل الانخراط في الجيش في العصور الحاضرة ومثل أعمال الغوص على اللؤلؤ بالنسبة للقبائل المتاخمة للخليج في العصور الغابرة. ولكن في ظل انعدام الخيارات الأخرى ونظرا لما كانت تعيشه القبائل فيما مضى من صراع مستمر لم يكن أمام أفراد القبيلة من مهنة أخرى يمارسونها سوى مهنة الغزو.

تختلف طبيعة الغزوات والغارات التي تشنها القبائل على بعضها البعض حسب اختلاف المواسم. حينما تتشتت النجوع وتتناثر البيوت في موسم الأمطار فإن شن الغارات الكبيرة، الغزو، يصبح أمرا غير مجد لأنه يصعب في هذه الحالة لم أعداد كبيرة من الإبل وكسبها نظرا لتفرق الأزداد في المفالي على امتداد ديرة القبيلة، إضافة إلى صعوبة التواصل بين النجوع المشتتة وتجييش العدد اللازم لشن

الغارات. كما يصعب شن الغارات المباغثة نظرا لقرب المراعي من البيوت ونظرا لأن النجع في حركة مستمرة لا يلبث في نفس المكان لمدة طويلة. هذا هو الوقت المناسب للتلصص، أو ما يسمونه الحنشله أو الحيافة، وهو أن يسعى عدد قليل من المغامرين في حدود الشخصين أو الثلاثة إلى الكسب سيرا على الأقدام. هؤلاء يسمون حنشله (واحدهم حنشولي) أو حَوْف (واحدهم حايف) وما يقومون به يسمى حنشله أو حيافة، لأنهم يتحوفون النجع من أطرافه حوافه بحثا عن غرّة وفرصة للنهب. ومما يسهل مهمة الحنشولي أن القبيلة في فصل الأمطار تنبت بأذواها وتنتشر على امتداد مساحة ديرتها حتى تقترب البيوت من حدودها مع القبائل الأخرى، مما يقصر المسافة على الحنشولي الذي ما عليه في هذه الحالة إلا أن يعبر حدود قبيلته ليصل إلى بيوت القبيلة الأخرى ويتسلل إليها بحثا عن الغنيمة. ولا يخشى الحنشولي العطش في الشتاء نظرا لبرودة الجو وتوفر مياه الأمطار على سطح الأرض أو قريب منه على شكل خباري وغدران وثمايل وأمشا وقِلات، وكذلك فهو لا يخشى الجوع لأنه يستطيع أن يقتات من كالأصحراء وأعشابها، كما يمكنه أن يحل ضيفا على من يمر بهم من النجوع المتناثرة في الصحراء من أبناء قبيلته أو القبائل الصديقة. ولذلك يبدأ الحنشولي مغامرته لطلب الكسب لا يحمل إلا رمحه وأطماره البالية التي لا تقيه أشعة الشمس الحارقة ولا صقيع النجوم القارس. والحايف لا يجرؤ على الهجوم في وضح النهار بل يختبئ وفي الليل ينتظر حتى تنطفئ نيران الفريق وينام الرعاة وحراس الإبل وتغفوا الكلاب ثم يتسلل راجلا "يضوي" مثل الذئب بخفة ومهارة وجرأة إلى مراح البل ويفك ما يستطيع فكه من عقل الإبل في مدة وجيزة. تقول دبشة الضوية الشمرية تشكو إلى قريبها خليفة وتبته وجدها على أخيها باني الذي أودت به أحد مغامراته اللصوصية إلى مكان يدعى راف حيث لقي حتفه هناك على يد من كان يحاول السرقة منهم. وتصف الشاعرة شجاعة باني ومهارته في التلصص وسرقة الإبل وتذكر كيف كان ينهب الصرمة "عزبه" من الإبل ويدع أصحابها بلا لبن ويطوون صميلهم لأنهم يسوا من استردادها:

الله من قلب تولاه هَقَاف	تلعب به الأرياح بين الصناديق
واخوي خَلِي ياخليفه ورا راف	جَيَاب وضح مثل لون الغرانيق
واخوي لى مَنه نصا البيت ما خاف	يجيبها من عند ناس مطاليق
كم عَزْبَة طَوَى صَمِيلَه ليا حاف	يسوقها من بين الاطناب تطليق

وتقول مرسا العطاوية تتوجد على فتى أحلامها الذي يطلق سهاف المعاشير من عقلها إذا غفى جماعات الحراس "المناسر" آخر الليل وسرقهم النوم. وهو خفيف الحركة وبارع لدرجة أنه يدرك أي يمرق من خلال البيت لا يشعر به أحد. وتقول في البيت الأول أن أحد الإبل التي تجذب الماء من البئر لونها زرقا، أي ناقة يختلط فيها الشعر الأبيض والأسود، وهي مشؤومة عندهم لصعوبة تذليلها وعدم انقيادها، لذا

فإن جذبها للغرب سيكون عنيفا ومضطربا، وهذا تعبير عن شدة الألم الذي تقاسيه الشاعرة. وفي البيت الأخير تقول إن حديث عشيقها أحلى على كبدها من حليب النوق الفتية أما حديث غيره فهو على كبدها مثل كي النار "عرقى":

واجر قلبى جرَّ عَرَبٍ على بيـــــر
على ثلاث حــــيل وبهــــن زرقا
فيما يــــببُّه الى هن محادير
وفيما يــــصعُن به مع الحبل يرقى
عليك يــــمطِّق سهاف المعاشير
يوم المناســــر تالي الليل ســــرقا
ليــــا شــــبَّت النيران مثل الفنــــانير
يضوي عليهن يــــدْرِق البيت درقا
هرجه على كــــبدي حليب المعاشير
وهرج العــــرب غيره على الكبد عــــرقى
ويقول فطحان الجياش موجهها الكلام إلى ابنته رفيعة التي كانت تصطحبه في مغامراته الليلية لنهب الإبل ويقول لها ما أحلى أن أرفع عقيرتي بالغناء خلف صرمة من الإبل "جهاجيل":

يارْفَيْعُه يــــازين صوت المــــعْني
على جهاجيل مع الصبح ســــراح
يارْفَيْعُه كل النجموم ادبــــن
حتى قمر عــــشرين يــــارْفَيْعُه طاح
وحنا على ســــج النضا ما نــــوئي
نسري عليها لين فلاج الاصباح
من حب وضحــــا للحوير تــــجني
نضوي عليهم مرخصين لارواح
كم خــــير من راس رمــــحي يون
يارْفَيْعُه خــــلوه فى المعتلج طاح^(١)

ويتحاشى الحنشل الليالي المقمرة ويفضلون الليالي الأولى أو الأخيرة من الشهر القمري، خصوصا الليلة الأخيرة التي لا يظهر فيها نور القمر البتة. وقبل الهجوم يحرص الحنشولي على نزع ملابسه "يتمصلخ، مثل ما جابته امه" ويدهن جسمه حتى يصعب على صاحب الإبل الإمساك به، ولكي يتمكن من الانزلاق والإفلات من قبضته بسهولة. ولدرء خطر الحنشل ولصوص الليل والحد من سرقة الإبل قد يعمد الفريق إلى بناء بيوتهم قريبة من بعضها البعض على شكل دائري، "دوار"، بحيث تكاد تتشابك أطنابها مشكلة بذلك مع البيوت سياجا يحمي الإبل التي تمضي الليل في داخله فيصعب على اللص لو نجح في الدخول إلى السياج وفك عقل الإبل أن يسوقها بين الأطناب لأن الأطناب تلتف على أقدامها فتشدها مما يتسبب في سقوط البعير وهز الأطناب وتحريك البيوت وتنبيه أهلها للخطر. ويكتفي الحنشولي بالكسب القليل من الناقة إلى الناقتين والثلاث يسوقها أمامه غنيمة له ولصاحبه الذي عادة ما ينتظره خارج البيوت وهو القعيد. ومهمة القعيد حراسة الزهاب والملابس "قراميش الخلا"، "كلايف الخلا" والركائب إن كان معهم ركائب، ونصيب القعيد من الكسب أقل من نصيب الضوأي الذي يعرض نفسه للخطر ويتطلب عمله مهارة فائقة. والحنشلة هي الفرصة المتاحة أمام البدوي المغامر المعدم ليثبت مهارته وجرأته

(١) ادبــــن: مالت نحو المغيب. طاح: غاب، سقط في المغيب. سج النضا: سوقها بهمة. ما نــــوئي: لا نفتر. فلاج الاصباح: انفلاق الصبح. نضوي: نتسلل ليلا لسرقة الإبل. خير: رجل جواد وشجاع. المعتلج: معتلج الخيل في المعركة.

وحظه. إذا استطاع الفتى أن يتوغل في القفار الموحشة "يقطع الفرجه" ويتخلل ديار الأعداء ويحالفه الحظ "رَكْبُهُ السَّعْدُ" ويأتي من عندهم بالكسب، وإذا اجتاز هذا الامتحان عددا من المرات اقتنع به جماعته وتبعه الركبان "صار يُرَكَّبِينَ"، "يُعَيَّرُ"، وبدأ يخطو خطواته الأولى نحو الزعامة ليصبح عقيدا "يُتَعَيِّدُ"، ويتحول عمله من حنشلة إلى معيار. يقول العبيد:

وكان اول ما تتبدأ به زعامة الزعماء من البادية انهم يغزون على اعدائهم رجلا بلا ركوب ثم بعدها يمتطون الركاب المذلة من الأبل ويسمونهم (معيار) فيقال عير فلان اذا كان في ركب قليل من عشر الركاب او اقل فلا يسمونهم غزو لأنهم ما يدركون غارة النهار بل انهم يكمنون بالنهار ويهدفون على اعدائهم بالليل فيجدون فيها غفلة ينهبون او يسرقون واذا كثرت اتباع الزعيم مع قيام حظه غزا بخيل وجيش وصبوا عدوهم في رابعة النهار فتارة يغمنون وتارة يؤخذ جيشهم الذي هم عليه وتذبح خيلهم (عبيد: ٢٨٦-٧).

وهناك شبه قوي بين الصعلكة و "الحنشلة"، وأظنهما يشيران إلى نفس الظاهرة، وإن بتعديلات طفيفة طرأت عليها مع مرور السنين. الصعلوك والحنشولي كلاهما ينسل من قاع المجتمع البدوي ويتطلع لتحقيق سمعة طيبة ومكانة مرموقة في المجتمع القبلي، وهذا يتطلب إنسانا فاتكا يتحدى الطبيعة والبشر ليثبت قدره وقدراته، وهو عادة لا ينتمي إلى النخبة من أسر المشايخ والعقدا ومن في طبقتهم، وهو لذلك لا يملك حتى الراحلة وعدة الحرب، وكم هي القصائد التي يتمنى فيها الحنشولي لو أنه يملك ذلولا يغزو عليها مع نبلاء القوم وفرسانهم. والبدو وإن كانوا يعجبون بسوالف الحنشل والصعاليك إلا أنهم لا يتعاملون معهم بنفس الطقوسية والإتيكيت الذي يتعاملون بها مع الغزاة الراكبين، لأنهم يتسللون بطريق المخاتلة والتلصص بدل المواجهة. فصاحب المراح إذا استطاع الإمساك بالحنشولي له الحق في أن يقتله أو يأسره ويطلب من جماعته فدية لفك أسره. وهذا على خلاف التعامل النبيل بين المتقاتلين في ساحة الوغى في وضح النهار والذي يخضع لطقوس الفروسية ويتسم بالصفح واللين. يبدو لي أن السبب في هذا التعامل الخشن هو أن الحنشولي يفتقر إلى أي فائض مادي أو معنوي مما يعني أن مكانته المتدنية في قبيلته لا تمكنه من أن يرد الجميل، كما أنه لا يمتطي راحلة يتنازل عنها لأسيره مقابل العفو عنه وإيصاله إلى أهله سالما. هذا التباين في التعامل يشير إلى طبيعة التراتبية والطبقية في المجتمع القبلي، ولربما أن النخبة من خلال هذه الإجراءات يحاولون قطع الطريق على من يتطلعون من الطبقة الدنيا للسمو إلى طبقة النخبة ذات الامتيازات. وقد يسرف الصعلوك أو الحنشولي في التحدي ويدفعه العوز والإملاق إلى اللامبالاة وتجاوز الأعراف القبلية المتعلقة بالسلب والنهب، خصوصا إذا يئس من تحقيق مطامحه وتطلعاته، ويصل إلى درجة التهور مما يشكل تهديدا لأركان المجتمع القبلي الذي يريد ذلك الحنشولي أو الصعلوك أن ينتزع منه اعترافا ويحتل فيه مكانة بالقوة. وبذلك يستحق الخلع، وهو ما يسمى في مصطلح البدو المتأخرين مُجَبِّي أو مُثْرَب.

والوقت المناسب للحنشلة هو الوقت المناسب للمعيار. والمعايير يكفيهم من الكسب الشرشوح أو الشمشول، وهو ما لا يزيد عن عشرين إلى ثلاثين من الإبل. على خلاف الغزو الذين يطمعون في كسب الأذواد والقطعان. المعيار أصغر حجما من الغزو وأقرب مسافة، والمشاركون فيه يسمون رُكيب (تصغير ركب) أو معايير لأنهم يمتطون عيرات (م. عيره، وفصيحتها عيرانة، وهي الناقة الصلبة). وإذا كان الحنشل أو المعايير رهطا يتألف من عدة أشخاص فإنهم يتوازعون المهام على النحو التالي: يتخلف البعض منهم لحراسة ملابسهم وزادهم وركابهم، إن كانوا معايير، كما يفعل القعيدة، بينما يذهب أحدهم لمشاغلة كلاب القطين واستدراجها بعيدا عن أصحابه، وهذا يسمونه المستنبح. ويقوم آخرون بمحاولة سرقة الإبل وآخرون يجلسون عند مدخل البيت الذي ينوون سرقة مستعدين بهراواتهم بحيث لو انتبه صاحب البيت وهب لاستنقاذ إبله ضربوه بالهراوات على رأسه وفروا بالإبل.

الغزو

يحل موسم المغازي قبيل فصل الصيف، حينما تبدأ القبائل تتجمع وتقتن على أبارها في أماكن متباعدة تفصلها مساحات شاسعة من الرمال والحزون الجرداء. يصبح التنقل بين هذه المقاطين صعبا لا يستطيعه إلا من يملك راحلة وزادا وماء. في هذا الموسم تكثر الغارات الكبيرة، بما يتطلبه ذلك من تجهيزات واستعدادات، حيث تعرف كل قبيلة مقطان القبيلة الأخرى. كما أن تجمع أذواد الإبل في المقاطين بأعداد كبيرة يشكل إغراء لا يقاوم. ويعتمد تجهيز الغزو على حجمه وهدفه والمسافة التي عليه أن يقطعها. ويتراوح حجمه من العشرات إلى المئات يستغرق ذهابهم وإيابهم ما يقارب ثلاثة أشهر يقطعون فيها مئات الكيلومترات. يصف الشاعر فارس ابن شريان المطيري في الأبيات التالية أحد مغازي الشيخ خالد ابن عقاب ابو شويربات، شيخ البرزان. يقول إننا في بداية انطلاقتنا كانت أباهر الإبل مرتفعة لسمنتها "مباهير" لدرجة أننا نضطر إلى التخلص من حشو الأشدة ونرميها "ننطل" لنستطيع شدها على ركابنا. وفي نهاية الغزوة التي استغرقت مدة طويلة آلت إبلنا مثل السنانير في نحافتها وهزالها وصرنا نبحت عما نحشو به الأشدة "نلفز لآبده" حتى لا تنزلق عن ظهور الركاب الهزلي التي طفقنا نرقع خفافها بالقد. ويصعب تثبيت الرحل على ظهر الناقة في حالتين: إذا كانت سميئة جدا أو إذا كانت هزيلة جدا:

حنا غزينا والركايب مباهير	ناخذ وننطل من حشاوى الاشده
تسعين ليله للركايب نواطير	وخطر على نود المعادي نردّه
واليوم هن دونك سواة السنانير	بالرين والجثيا نلقز لآبده
واحوف رقعته بزین التباصير	ولا منهن اللي ما تُنعل بقدّه

ويقول ابن شريفه العنزي يصف أحد مغازي مطلق الديدب:

تسعين ليلة راكبين على الجيش
مع درب مطلق شوق ضافى العكاريش
بظهرهن قمننا نهوم الديارا
حراً مضاربيبه مضارب ندارا
ويقول محمد ابن جدّوع الرشيدى يصف أحد مغازي صاهود ابن لامى:

ثلاثة اشهر من هل السيف عادين
يتلن ابو سقّاح سقم المعادين
الهجن كمل نيّهن والشحم باد
الحر الاشقر لابرقي الريش صياد
ويقول عبيد ابن طواله يصف أيضا أحد غزوات صاهود ابن لامى ويحدد بدايتها
مع بداية تأبير النخل ونهايتها مع اقتراب نضج الثمرة، وهذا أيضا ما يؤكد أن وقت
الغزو هو فصل الصيف. ويقول إن ركابهم في بداية غزوتهم كانت سميئة تزل عنها
أكوارها وتقطع أرسانها لفرط نشاطها وعدم قدرتهم على كبح جماحها. وفي نهاية
الغزوة هزلت ونشّت حتى ضاقت نحورها وأصبحت ذراعها تصتك بزورها:

حنا غزينا والنخل تو مابور
ثلاثة اشهر فوقها ثقل مصخور
واليوم دوك الطلع كله تمام
نمشى النهار ونمشطه بالظلام
تقطع مضاريس الرسن والخطام
مثل الغشيش اللي طواه الهيام
فأجابه صاهود مؤكدا على دخول الشتاء قبل إيابهم إلى مضاربهم وتمتعهم
بنسائهم "زرق الوشام":

غزيت انا ياعبيد بهلال عاشور
ثلاثة أشهر فوقهن ثقل ناطور
واول صفر والتوم كله تمام
جانا الشتا ما شفت زرق الوشام
ولا بد للغزو من قائد "عقيد"، تتوفر فيه خصال القيادة من شجاعة وحصافة
وفراسة وسعد الطالع. والبدو يؤمنون بالخطأ إيمانا قويا. بدون الخطأ لا ينفع الإنسان
شجاعته ولا نكاؤه ولا ما يبذله من جهد مهما كان كبيرا. يقول الشاعر:
يامشاهى النفس عسر دربهنه
ما يثيبه فعلها والخط غايب
ويقول الآخر:

شقي على العيرات والخط قاييم
ويقولون إن جديع ابن ملحّم لما أقلّ سعده وتردّي خطه واغتصب منه الأماره بنو
عمه قدم من الشمال إلى ابن علي أمير حائل ليخطب منه بنته لعله ينجب منها أبناء
نجباء يستردون ما افتقده من سعد الطالع، أو كما قال جديع لابن علي: ابي اغدي
يجين ولد بناخي لك يقعد شدادي ويقوم حظي. ويقول محمد الدهيثم لما رمى ساجر الرفدي
من على جواده:

رمى ساجر قفو تالى المناعير
ما هي جبانه مير هذي مقادير
هرج وكاد والنشام ما شهود
خطه هفى وحنا سعـدنا يزود
ويعدون الخط أحد المقومات الأساسية التي تجعل من المرء عقيدا. يقول العبيد في
معرض حديثه عن فخذ المغايرة من ذوي عطية من عتبية:

وكان لهم زعيم بوقته كالنجم الثاقب يدعى ضيف الله بن عميره وكان شهما شجاعا

فارسا لا يفتر عن المغازي ابدا وكان اذا اراد الغزو وعلموا به رؤساء عتيبه لم يتخلف عنه احدا منهم لتوفيق حظه فقلما يرجع مفلسا في كل غزواته وفيما يروى لنا انه في بعض مغازيه غزا معه هذال بن فهيد الشيباني وكان اكبر منه زعامة ومقاما وغزى معه صنيان الضيظ وغزى معه صايل الخراص وغيرهم فحدث ذات ليله وهم مدلجون في السرى ان قام بين الجند تشاجر وجدال حتى ارتفعت اصواتهم فسمعهم ضيف الله بن عميره فقال اقطعوا واخسوا كل ما جاني من ضعفه قال انا شيخ فاجابه هذال قبلهم كلهم وكان لا يشك في نفسه بان قال حيل الله اقوى يا ولدي والله ما اودعنا نتبعك الا هذا السلوقي الذي يباريك يعني حظك (عبيد: ٢٩٧).

يقول أحد الرواة:

العقاده حظ وبتاعه، الرجال الحظيظ يتلونه الرجال غصب عليهم، يتبركون به. الرجال ذاك الوقت يتبركون، الرجل اللي ميروك رايه وحظيظ يقلطونه عند مثل المهمات هذي.

ويقول نواف ابن طعيسان:

يوم توفى سويدان تولى شيخة الرمال بعده صالح ابن منيخر، هو اطيپ الرمال الماجودين على وقته، صار ينزل للعرب ويتعقد ويغزي بالعرب ويكسبون الرمال معه، أنت يا صالح. وهو اللي صف جارد يوم مات سويدان، وعينه عليه حتى أرشد جارد. يوم كبر جارد وقام يغزي والى مثل اللي كنه انصفق شوي، انت يا بن منيخر. ويغزي، ولله، ينصفق. ويركب الحظ على جارد. قال: يا جارد، انا ابي اغزي أنا واياك، ابيك معي، بس ابي المنوخ انا. قال جارد: سم ياعم، رايك، وهداية الله، ما يخالف. وغزوا ونوخ وعلى مطقه، ونوخ لهم ثانيه وبعمياها. ما حصلوش. قال: يا الرمال، خلصي (= خلصت)، انصفتك انا، مير اتبعوا عقيدكم، أنا خلصت، عقادتي خلصي (= خلصت)، اتبعوا عقيدكم. ويصير جارد، طال عمرك، عقيدهم ليا ما مات بالجاردي هذا.

ويقول حسين ابن علي ابن خليف الحذب:

الحديان تبعتهم آل ثابت يوم صاروا يصلون العرب على العرب ويصحبون الناس. صار لهم حظ وركبهم السعد وتبعتهم الناس وفسروا ابن عمار، أخذوا منه الشيخه يوم طفت ناره وانكب سعده. لا شك ابن محيثل الى اليوم يحترمونه آل ثابت ويقدرونه والى جا الراي الا كود ياخذون رايه. والحديان ما يدفنون حظهم، يوم تطالب الحذب هو وابن محيثل عند العجرش، قال الحذب للعجرش: والله ان سعلتن ان ابن محيثل اول ياخذ عصاي ويردن عن هواي قبل لكن قام حظي وخذيت منه الشيخه، وانا والله ما اقلط على قاله ولا اضرب درب الا كود أخذ رايه. والحديان من أولهم وهم أهل راي واهل فرسه.

ويقول الطرقي ابن عصمان ابن لعيان ابن رافع المايق:

اللي يطيب من الجرذان هو اللي يشيخ بال بيطن مثل المايق وطريف جد المعاكله من المايق ودويحان من المزيريب وابن فروان عقيد وشليان من المزيريب شاخ بهم وهو خال عيال حمود العبيد الرشيد ماجد وسالم. خافور المايق كل حول يغزي وبعد ما ياخذ يتكف. وخمس قطعان اللي هو حظ. والى نزلوا الجو ما هنا رجل بالغفيله يمدن نياقه الا يمدن المغاتير، نياق آل رافع، يتبركون بهم، حظ. والا واجد الرجال اللي اطيپ منه بالغفيله. الغفيلة كلهم رجال طيبين، ادخل على الله عنهم، لكن يتبركون بهم تبرك.

العقيد المظفر والموقق في غزواته، أو المحرام كما يسميه البدو، يلزمه رصيد من الحظ والبركه يكفي له هو ويفيض عن حاجته بما يكفي لإقالة الحظ العاثر وإزالة النحس الملازم لأي رفيق مشؤوم "مقروود" يصاحبه في غزواته. يقول خالد عن جده

شليويح العطاوي:

شليويح في مَغْزَاهِ عَلَى ابَاعِرِ الْمِدْلَى غَزَى مَعَهُ قَوْمٌ وَاجِدٌ وَاعْتَرَضَهُ رِجَالٌ يَسْمَى دَاعُولَ الْحَافِي. قَالُوا الْقَوْمُ كُلُّهُمْ مِنْ فَمٍ وَاحِدٍ: يَاشْلِيويحِ اخْتَرْنَا فِينَا وَفِي دَاعُولٍ، مَا يَرُوحُ مَعَنَا دَاعُولٌ. قَالَ: وَش فِيهِ دَاعُولٌ؟ قَالُوا: دَاعُولٌ مَقْرُودٌ، الْقَوْمُ الَّذِي يَرُوحُ مَعَهُمْ يَذْبَحُونَ. قَالَ: هَذَا شَرِكٌ وَالشَّرِكُ مَا لَهُ فِي قَلْبِي مَحَلٌ، هَذَا شَرِكٌ وَدَاعُولٌ مَا يَرْجِعُ لَوْ تَرْجِعُونَ كَلِّكُمْ. رُجِعُوا ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْقَوْمِ عَلَى شَانَ دَاعُولٍ، لِأَنَّ دَاعُولَ الْقَوْمِ الَّذِي يَرُوحُ مَعَهُمْ مَا يَرْجِعُونَ. وَارْجِعْ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِهِمْ. قَالَ: امشِ يَادَاعُولِ. رَاحَ وَخَذَا ابَاعِرَ الْمِدْلَى الْقَطِيعِينَ، الْمَغَاتِيرَ وَالْمَجَاهِيمَ وَجَابَهَا. وَلِيَا الْقَوْمِ قَامِحَةَ الَّذِي عَوَدُوا. يَوْمَ جَابَهَا فِي الْقَاعِ الْمَسْمَى قَاعِ الْحَرَامِيَّةِ، قَاعِ الْحَرَامِيَّةِ شَرْقَ عَفِيفٍ، بَيْرِ اسْمِهِ الْحَرَامِيَّةِ، قَاعِ الْحَرَامِي. يَوْمَ جَابَهَا فِي قَاعِ الْحَرَامِيَّةِ وَهُوَ يُوَقِّفُهَا الضَّحَى وَهُوَ يَقْسِمُهَا وَهُوَ يَزْحُ لِدَاعُولِ مِنْهَا سِتَّةَ عَشْرَ مَتْنٍ، سِتَّةَ عَشْرَ نَاقَةٍ. وَدَاعُولٌ فَقِيرٌ مَا يَلْقَى مَا يَذُوقُ. قَالَ: خَذْنَا يَادَاعُولِ نَقْذُ بِهَا عِيَالِكَ. بِطَرِيقِهِمْ لِلْمَغْزَى تَمَثَّلَ عَادُ أُبَيَاتٍ مَا قَضِينَا مِنْهَا الْإِقَافَ، قَالَ:

يَالْمَشْرَكَهَ مَا يَقْطَعُ الرِّزْقَ دَاعُولٌ مَا يَنْقَطِعُ رِزْقُ اللَّهِ الَّذِي نَوَى بِهِ
وَيَقُولُ حَسِينُ ابْنِ عَلِيٍّ ابْنُ خَلِيفِ الْحَدَبِ:

مَسِيْبُ الْحَدَبِ اخْذْ لَهُ فَضْلِيهِ وَهُوَ بِالْمَغْزَى وَلَا تَقْعُدْ عِنْدَهُ إِلَّا لِيْلِهِ وَنَشْتُ بِكَامِلٍ وَمُسَيَّبٌ ذُبِحَ بِمَغْزَاوِهِ هَذَاكَ. وَكَبِيرٌ كَامِلٌ عِنْدَ خَوَالِهِ وَصَارَ سَلْطَةً مِنَ السَّلْطِ، بَلْوَى. وَتَعْتَرِضُ لَهُ هَكَالْعَجُوزُ قَالَتْ: يَاخُوِي فِكْنَا مِنْ شَرِكِ أَنْتَ مَا أَنْتَ مِنَ هَالْعَرَبِ، طَسِ بِاللِّي مَا يَحْفَظُكَ. نَشْدُ امه، قَالَتْ: أَنْتَ وَلَدُ شَيْخِ آلِ ثَابِتٍ. يَوْمَ صَارَ اللَّيْلُ لَيْلِينَ وَاسْتَلْفَفَ عَصَاوَهُ وَهُوَ يَمْشِي. وَسَنَةُ كَامِلُهُ وَهُوَ يَتَعَرَّبُ مِنْ عَرَبِ الْعَرَبِ. يَرِدُ عَلَى الْمَا مَعَ النَّاسِ وَدَلَّ الْأَمْوَاهُ وَالْمَوَارِدُ جَوْ جَوْ. يَوْمَ طَابَ خَاطِرُهُ مِنْ وَرْدِ الْأَمْوَاهِ وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ آلِ ثَابِتٍ، قَالُوا لَهُ: بِالرَّمَادِ، عِنْدَ حَايِلٍ. آلُ ثَابِتٍ عَقَبَ مَوْتَةَ مَسِيْبِ طَفْتِ نَارِهِمْ وَبَطَّلُوا السُّوَالِفَ وَالْمَغَازِي. طَبَّ عَلَيْهِمْ وَنَشْدُ عَنْ جِبَلٍ، جَدٍ مَطْلُوقٍ، اقْرَبْ مَا لِلْحَدَبَانِ، مِنْ عِيَالِ عَامِرٍ. جَاهِمٌ وَعَلْمُهُمْ بَرُوحُهُ. قَالُوا: وَشْ عِنْدَكَ لَنَا مِنَ الْعُلُومِ؟ قَالَ: وَاللَّهِ يَالْ ثَابِتِ مَا جِئْتَ لَكُمْ بِالْعُلُومِ الْمَا. وَالِي مِيرِ ابْنِ سَطْلَهُ مِنَ الثَّابِتِ يَسْمَعُ حَكْيَهُ. قَامَ وَشَرِبَ مِنَ الْحَوْضِ، يَوْمَ أَنْهُمْ مَا يَتَنَجَّسُونَ مِنَ الْحَوْضِ، قَالَ: أَرِ حَدَبٍ، بَسَّ مِيرٍ، مَا أَكْثَرَ مِنْ مَا الرَّمَادِ هَاللِّي جَائِبٍ لَنَا عُلُومَ الْمَا. الْمَرَادُ أَنَّهُ جَاءَ عَلَى جِبَلٍ وَهُوَ يَسْرَحُهُ بِالْبَلِّ. كَامِلٌ مَا يُبَالِهَ سَرِحَةَ بِالْبَلِّ الْمَاخُودَهُ. الزَّيْدَةُ قَامَ يَقْطَعُ بِهِ الْجَوَادَ وَالثَّنْتَيْنِ مِنَ الثَّلَاثِ. جَاءَ حُدَى الْأَيَّامِ مَرُوحٌ بِالنَّهَارِ، الدُّنْيَا عَلَيْهِ خِيَالٌ وَتَرْتَرِذُ مَطَرٌ، لَقِيَ لَهُ جَحْرُ جَرَبُوعٍ وَحَطَّ عَلَيْهِ لَهُ زَنَادٌ، أَنْتَ يَاكَامِلُ. يَوْمَ طَبَّ عَلَى عَمِّهِ عَقَبَ مَا رُوِّحَتْ الْبَلِّ، قَالَ: وَاللَّهِ يَا عَمِّي لَقِيْتُ لِي خَزْنَهُ بِرَاسِ مَفْلَى ابَاعِرْنَا. وَتُخْبِرُ، ابْنُ أَدَمَ مَا يُخَلِّي مِنَ الطَّمْعِ. قَالَ عَمُّهُ: يَا لِهَ يَمَّةً. وَشَدُّوا هَكَالذَّلُولِ وَانْحَرَوْهُ. كَامِلٌ بِسِ بِي بِي يَوْرِي عَمَّهُ أَنَّهُ دَلِيلُهُ، وَإِلَّا مَا مِنْ خَزْنِهِ. وَيَجِي بِهِ اللَّيْلُ سَارِي لِيَا مَا جَاءَ عِنْدَ جَحْرِ الْجَرَبُوعِ. قَالَ: نُوِّخَ يَا عَمِّي نُوحٌ، تَرَاوَهُ عِنْدَ رَكْبَةِ الذَّلُولِ مِنْ يَمِينٍ. مَا لَكَ بِهِ طَوِيلُهُ، تَلَمَّسَ يَا الشَّايِبِ مِنْ طَمْعِهِ. قَالَ: لَقِيْتُ شَيْءًا؟ قَالَ: لَعْنُ أَبِيكَ مَا نَتَهَبُّعَ لَقِيْتُ إِلَّا زَنَادَ بِجَحْرِ هَالْجَرَبُوعِ. قَالَ: هَذِي الْخَزْنَةُ يَا عَمِّي. قَالَ: لَعْنُ اللَّهِ أَبِيكَ جَائِبِينَا نَتَهَبُّعَ بِتَوَالِي هَاللِّيُولِ تَبِي تَعْلَمَنَّ أَنْكَ تَدَلُّ. وَهُوَ يَدْبِغُهُ وَيَرُوحُ وَيَخْلِيهِ. تَنْقَحُ بِرَاسِ مَفْلَى ابَاعِرِهِ. ثَانِي يَوْمَ طَبَّ عَلَيْهِ بَنْتُ جِبَلٍ، قَالَتْ: يَاكَامِلُ أَنْتَ وَشَ الَّذِي بِيَالِكَ؟ عَلَّمَنَّ. قَالَ: يَا بَنْتُ عَمِّي وَاللَّهِ مَا بِيَالِي سَرِحَةَ ابَاعِرِ، الَّذِي بِيَالِي أَرِيدُ اقْوَدِ الرِّجَالَ، أَرْدُ الرِّجَالَ تَتَّبِعَنَّ. قَالَتْ: تَخَيَّرْ مِنَ الْبَلِّ لَكَ حَايِلِينَ، بَحْرُ الذَّلُولِ الْفَلَانِيَّةِ وَالذَّلُولِ الْفَلَانِيَّةِ اقْرَنْهُنَّ وَرَحَّ بَعْنَهُنَّ وَاشْتَرِ بِثَمْنِهِنَّ قَرَامِيْشَ الْخَلَا وَأَنَا إِلَى جِيْتِ جِبَلٍ اقْوَلِ نَهَبَهُنَّ وَانْحَاشِ. وَاقْرَنْ ذَلُولَ وَحَايِلِينَ وَاجْلِبَهُنَّ عَلَى خَيْبَرِ وَيَشْرِي سَيْفَ وَشَدَادَ وَكَالِيفِ الْخَلَا وَيَطْبُ عَلَى عِبْدِهِ غَزَايَ لِحَالِهِ. وَيَتَّبِعُهُ الطَّلِيْعَةَ مِنْ عِبْدِهِ، أَقْرَدُ مَا بَعْدَهُ، مَا يَنْهَجُ مَعَ جَمْعِ اللَّهِ يَجِيرُكَ إِلَّا كُودٌ يَسْرُدُونَ وَيَذْبَحُونَ. وَإِلِيدَةُ هُوَ، بِسِ مَقْرُودٌ. يَوْمَ طَلَعَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ:

وين تبي ياشمري؟ قال: والله غزأي. قال: غزاي لخالك؟ قال: لحالي. قال: وانا معك. قال: يا حياك رديف على وروك هالذلول. يوم انقطع شوف العرب، قال: ياخوي الرحمان، انت تبي تقول يمينك يسارك، ارجع ما طول العرب قريبين، تبي تسد اثمك بلطمه وتتبعن وانت على وروك هالذلول والا ارجع لهلك ما طول العرب قريبين. قال: لا والله ياخيبي انا منك خلقت، وين ما رحنا انا تبعتك. الزبده ايام وليالي، هو يخبر الديار كله، موقف به من قبل ويعرفه، يعرف وين يعزبون ومن اللي يدشر الهمل ومن اللي يسرحونه بلا جنب. واعد هو وياوه وياخذون هكالب. والى كل واحد عزله ما بين السبعين الى الثمانين ناقة. وطبوا على عبده. والى هذا المقرود اللي ما يخاوي احد الا مسرود جاي ومعه فود ما هو هويين، استحظ مع كامل انت ياالعبدي. قال كامل: ياوين محبوب الريح اللي يبي يتخير من هالبل وحدة يعقله له والباقيات يوديها لجبل. هم يوم وليه عنهم، عن عرب جبل. جا واحد من طماميع هالعرب قال: انا اوديها. خذي له حول السبوع كامل ويفزي ثانيه. طماميع الرجال تعلقوه، يوم شافوا الطليعه وهو الطليعه استحظ معه تعلقوه حول العشره او العشرين. والى مير غزو، ما هي سالفه واحد او اثنين. زاد غزى وفود وسلامه. ويعزل له ثمانين ناقة ويدفعهن لجبل. الى مير آل ثابت يوم صار عندهم ثاني حال. قالوا: حنا دشرنا رجالنا راعي هالفعل هذا. قالوا: يارجل حنا نلحقه والا ما نلحقه؟ ينشدون اللي جاب البل لجبل. قال: والله يمكن يريحون تالي هالسبوع عند اهلنا وتلحقونهم. الى مير آل ثابت مدهرين لهم سنين ومردين. وهي تحتمل نص آل ثابت وهم يطلبونه. والى معهم ابن سحله اللي قال له ار حذب. ويفزي كامل بال ثابت ومعهم من عبده. ويضرب بهم مظامي لين مسهم العطش، لين بدوا يتواقعون من ركابهم. وهو يدفج قدامهم على نلولة ويفحج له على له مقر، المقر يدلله دلالة، والى مير يتذلل تذلبل. قال: يال ثابت عندي لي مويه تقول يروي العطشان طاسه او ما يرويه، وانتم بكيفكم، اللي يبي يصير هناك وادرهش له درهش نعجه عز الله اني اسقيه، وعلى شرط افحج ويشرب من حدر خصياني. هذا حكله يم ابن سحله. قال ابن سحله: انا ميت ابشرب. قال: انزح وراك، وهو يقوم بدرهش له وهو يجي يحيي. امير يتازا عن الما والى مير مثل عين الداب. الرجال عطشان وهو لك يصله بالمقر. قال: هذا يابن سحله يوم انا اجيب لك علوم الما، وهو يركشه. قالوا آل ثابت: اتركوه خلوه بيبرد كبده، حيثه مستحقه ابن سحله. وكل ما ينغش يركشه: هذي علوم الما يابن سحله يوم اني اجيب لك علوم الما وتعيرن بحوض اباعرك. لياما غدت خنته وسعابيله هذا طوله، تغطي وجهه، لين ما بغى يموت. الزبده شربوا وروبو وعينو من الله خير. ويصفق هكالراعايا بال ثابت. ويصير كامل وتقوم تتبعه آل ثابت.

ورصيد الإنسان من الحظ يزيد وينقص بحسب تمسكه بالأعراف القبلية وقيم الثقافة البدوية من الصدق والشفافية والوضوح، أو كما يقولون: النقا. شهادة الزور والكذب والخيانة وما شابه ذلك من المسلكيات المشينه كلها تنهش في رصيد الإنسان من الحظ حتى تقضي عليه تماما. لما تطالب عقيل الياور ومحيريت ابن هذال عند الحكومة العراقية في بعض الشؤون القبلية أحضر ابن هذال معه عجلان ابن رمال الذي كان مجاورا له منذ عدة سنين ظنا منه أن جيرته له ستجعله يشهد لصالحه لكن عجلان قال: الحظ ما هو حشيش احشه وينبت، انا ما انطي حظي احد، لا قريب ولا بعيد. ولما عاد محيريت إلى أبيه بعد انتهاء القضية أخبره قائلاً عن عجلان: عز الله انه ما ظلم حظه، انه شهد على بر. وقد رفض بداح العنقري الزواج من بدوية كان معجبا بها لما تبين له أنها غير عادلة في حكمها على الحضر وتتهنهم بالجبن زورا وبهتاناً: ما آخذة،

ابداً، السبب انه ظلمت الحضر، المقرن حضر والرشيد حضر والدنيا كله، وهي ظلمتي حظه. وإذا خالف الحظ العقيد مرات متتالية يقولون عنه أنه انصيف. وإذا أمسكوا بعقيد من أعدائهم، خصوصاً إذا كان قد أرهقهم بكثرة مغازيه عليهم وسلبه لهم، فإنهم يلجأون إلى أسلوب يعتقدون أنه يجلب له النحس. ينزلون كور العقيد من راحلته ويأتون به ويضعونه أمامه في وضع مقلوب ويطلبون من أحد العجائز أن تركب على الشداد في وضعه المقلوب على مرأى من العقيد وفي نفس الوقت يتجمهر صبيان الحي حول العقيد يسخرون منه ويهزأون به وبعدها لا تقوم له قائمة، حسب اعتقادهم.

والعقيد الذي يحالفه الحظ يتبعه الناس ويتبركون به ويؤمنون بصدق رؤياه ويعتقدون بأنه ملهم ويحيطون منصبه بمسحة من القداسة وهالة من التبجيل والمهابة. كما يعتقدون بأن العقيد يورث ما حباه الله من حظ وبركة وإلهام إلى ذريته من بعده ولذلك فإنهم بعد موت عقيدهم يولون أحد أبنائه حتى ولو كان صغيراً في السن منصب العقيد بعد أبيه ويطلبون منه قيادتهم في الغزوات تيمناً به وتبركاً. فقد سلّمت قبيلة الرمال قيادتها لصطام ابن هجوج بالرغم من صغر سنه لأن أباه هجوج كان في حياته عقيداً مظفراً ميمون النقيبه:

فيه واحد روى له روياء على ان نخلة به قنا وان الرمال يتشاورونه يبون هالقنا وانهم ما صابوه، ما صابه الا صطام ابن هجوج. قالوا لا ينوخ لنا الا صطام، وصطام توه ولد، ما بان له فعل، لله. مشوا معهم غضبان وعدوان وحميان ورغيان وصطم وكل فريس الرمال، قالوا: نوخ ياصطام. قال: كيف انوخ وانتم معي ياهاالشيوخ! ونوخوا به غضب عليه. نوخ لهم غضب. ضربه غضبان وعدوان وقالوا: الا تنوخ لنا. قال: يالربع انا وغد. قالوا: بس توكل على الله.

وعادة ما يرى العقيد وهو في طريقه إلى الغزو رؤياً يتفاءلون أو يتشاءمون منها ويستشفون منها النتيجة التي ستؤول إليها غزوتهم، ويسمون هذه الرؤيا عرضة معاوديه أو حلم المعاودي، وربما ظهر له في المنام ما يسمونه المنابي ويلقي عليه كلاماً غامضاً يحتاج إلى تفسير وقد يعني لهم خيراً وقد يعني شراً. فمثلاً إذا رأى العقيد في منامه فرساً أو ناقة أو قِبْل بنتاً جميلة أو لبس رداءً جديداً أو شرب ماءً عذباً صافياً أو أكل طعاماً طيباً أو حلم أنه يقطف فاكهة لذيذة أو يستظل بظلال شجرة وارفة فإن أياً من هذه الرؤى تعني فألاً حسناً وأنه سوف يوفق في غزوته ويعود منها سالماً غانماً. وإذا حلم أنه يقبض على نمر فهذا يعني أنه سوف يقتل عدواً مرهوب الجانب، كذلك الوقوف على ربوة عالية يعني التغلب على الخصم، ولو رأى في منامه أنه يلبس جوخة خضراء فإن ذلك يعني أنه سوف يتغلب على عدوه في المبارزة، أما إن رأى جوخة حمراء فإن ذلك يعني أن دمه هو سوف يسيل ويجرح جرحاً بليغاً. ومن الرؤى المشؤومة في المنام أن يحلم أنه يقع في بئر أو يرى شخصاً أعمى أو شخصاً جريحاً أو من سقطت أحد أسنانه أو من لدغته أفعى. كما يتطيرون أو

يتيمنون من سماع كلمة أو من لقاء شخص حسب اشتقاق اسمه ومعناه (Musil 1928a: 509, 396-7).

إذا كان الغزو كبيراً يضم أخلاطاً من مختلف فروع القبيلة، فإن لكل جماعة عقيداً وهؤلاء العقدا، ويسمونهم المتطلّعة، يخضعون لقيادة العقيد الأكبر "المنوخ المثور". ويسمون الطلوع في الغزو من العقيد المثور المنوخ، أي القائد العام، لطمه. والطمه تعني اللثام، ويقصد بها أن صاحب اللطمه نصيبه مثل نصيب العقيد من الكسب لكنه ليس له الحق في أن يعترض على العقيد في قراراته وتدابيره وأن يتبعه أينما وجّه، أي أنه كمن يتلثم ويلتزم الصمت. والطمه لها إجراء وضحتها لي خضير ابن حامد الربوض كما يلي:

قانون اللطمه الى غزى هالعقيد اللي تتليه الرجال وجينا حنا ربع، جماعه، خمسه، عشره،
عشرين، أكثر، اقل، قلنا للطيب منا، ابن عمنا: يافلان، تطّع من العقيد، طلّعنا. كود انحره انا،
انحر العقيد اتطّع منه. أجيّه اقول: أنا والله يابو فلان ابي لطمه، ابيك تُطْلَعَن على ربيعي، ما
يقال عليّ بالمغزى، ما تاخذ عليّ العقبه، انا أخذ عقبة ربيعي. قال. لا بالله الا ابشر به. اي بالله
تستاهله.

ويختلف حجم الغزو باختلاف مكانة العقيد وشهرته. قد يكون العقيد ورث هذا المنصب بحكم انتماؤه الأسري وقد يكون رجلاً عصامياً ميمون النقيبة استطاع أن يبرهن على جرأته وحنكته وحسن طالعه "طّلع بذراعه" فاقتنع به رجال قبيلته وسلموه قيادتهم في المغازي وتبعوه "تمسّعروه خلق الله"، "قامت تتليه الرجال". والعقيد هو الذي يعلن عن عزمه على الغزو: احذوا خيلكم، واطحنوا زهابكم، ترانا باكر مداده غزُو بامر الهادي. فيبدأ كل رجل يعزم على مرافقته في التأهب والاستعداد. ويحدد العقيد اليوم والمكان الذي يجتمع فيه من يريدون الغزو معه ويبدأون مسيرتهم منه "يمدون". وللتمويه قد يبدأ العقيد مسيرته في اتجاه مغاير للاتجاه الذي يريده فعلاً ثم بعد مسيرة عدة أيام ينحرف ويغير اتجاهه نحو مضارب القبيلة التي يقصدها فعلاً. وإذا كان الغزو كبيراً يشارك فيه عدد كبير من الرجال ومن مختلف أفخاذ القبيلة فإن العقيد يقيم على مورد معروف حتى يتجمع الغزاة الذين يفدون إليه من أماكن متباعدة، وكل منهم جاهز براحلته وزهابه وقربة الماء. ويمكن أن يكون لكل واحد من الغزو راحلة "مطيه"، "نلوه" ويمكن أن يشترك كل اثنين براحلة تحمل ما لديهما من ماء وزهاب ويتعاقبان الركوب عليها، "مردّف" (واحدتها مردوفه). وإذا اصطحب الغزاة معهم الخيول فإنهم يستجنبونها ولا يركبونها إلا وقت الغارة. ومن لا يمتلك فرساً بإمكانه أن يستعير فرس فارس آخر حالت الظروف دونه ودون مرافقة الغزو على أن يتقاسم الغنيمة مع صاحب الفرس. وكانت هذه عادة متبعة من أيام الجاهلية كما ورد عند أبي عبيدة في النقائص عند حديثه عن يوم ذي طلوح وشرحه لكلمة "مركّب" وهو، كما يقول "المركّب أن يأخذ الرجل فرس صاحبه فما أصاب على ظهره فلصاحب الفرس نصفه" (عبيدة

١٩٠٥/٢: ٧٨٣). والخيل يلزمها زماميل لأنها لا تستطيع تحمل الجوع والعطش مثل الإبل، ومهمة الزمّال حمل الماء والحشيش أو الشعير على بعيره للفرس مقابل قسم من الغنيمة يدفعها له صاحب الفرس الذي هو تابع له ويعتبر في معيته. وإذا أراد عقيد القوم أن يقود غزوة على الأعداء البعيدين لنهب إبلهم فإنه يختار رجاله حسب مواصفات معينة وحسب مناسبة كل واحد منهم للقيام بمهام محددة، ويستبعد من لا يمكن الاستفادة منه أو يعاني من عاهة تحد من فاعليته. يفضل العقيد أن يصطحب معه رجالاً أشداء يتمتعون بكامل حواسهم، وخصوصاً حاسة البصر، ولديهم خفة الحركة والقدرة على الجري السريع وتسلق الجبال واستخدام السلاح بمهارة. وتقع على عاتق العقيد مهمة التأكد من استكمال الاستعدادات وأخذ كامل الاحتياطات، بما في ذلك التأكد من توفر الماء والمرعى على الطريق والبحث عن دليل يعرف طرق الصحراء ومواردها. وعادة ما يصطحب الغزاة معهم شخصاً أمضى جزءاً من حياته في مرابع القبيلة التي ينوون نهب إبلها إما قصيراً أو لاجئاً أو أجيراً يرضى إبلهم ليستفيدوا من معرفته بموارد القبيلة ومفاليها وأين يسرحون إبلهم ويوردونها ومنّ منهم يمتلك أواداً كثيرة وطيبة الأصل. ولا يعتبر عندهم من العيب أن تطلب جوار القبيلة وبعد أن تنتهي مدة الجوار تغزوهم وتنهب إبلهم، حيث أن التزامك تجاههم ينتهي بمجرد انتهاء مدة الجوار أو القصير. كذلك الجار أو القصير أو الراعي الأجير لو علم أن القبيلة المجيرة له أو التي يرضى لها سوف تشن غارة على قبيلته الأصل فلا يعد من العيب أو الخيانة أن يُنذِر قومه بأي وسيلة يستطيعها، وإذا كان قومه قريين فقد يذهب بنفسه لينذرهم. والنذير عادة يحصل على مكافأة لقاء ذلك.

وإذا تقابل فريقان من الغزاة، أو حتى من المسافرين، في عرض الصحراء فإن التوتر يكون سيد الموقف بينهما، والفريق الذي يجد في نفسه القوة يسارع في الهجوم على الطرف الآخر قبل التحقق من هويتهم "ياخذونهم طفحه، شمام" ويبدأ القتال وإطلاق النار وسقوط قتلى قبل أن يتم التعارف والذي ربما يتضح منه أنهم من الأصدقاء، وهذا ما يسمونه وهمة، أي الخطأ الناتج عن التسرع. لكن إن كان الفريقان من الأساس لا ينويان الشر فإن أحد الركاب من أحد الفريقين ينحرف عن جماعته ويقوم ببعض الحركات الاستعراضية على راحلته أمام الفريق الآخر التي يستدل منها أنهم لا يريدون بهم شراً، عندها يقوم الفريق الآخر بعمل مماثل ويذهب كل منهم بسلام (Musil 1928b: 12).

وهناك ما يسمونه مُعاقِب المُلحِه. فإذا صدف أن تقابل فريقان من الغزاة في عرض الصحراء فإن كل منهما يطمع في الآخر. ولكن لو لم يتمكن أي منهما التغلب على الآخر وقررا أن يتصالحا فإنهما يتبادلان المؤونة، فيعطي كل منهما الآخر شيئاً من

مؤننته من الماء الغذاء " وينظونهم الرولة هكالمزوديه مليانة بقل وعكة هكالدن، والرمال ينظونهم مزودة هكالطين، يتعاقبون بالملحة"، وهذا ما يدخل ضمن ما سميناه شعيرة المألحة، أي الدخول في هدنة مؤقتة لا يجوز فيها القيام بأي عمل عدواني بين الأطراف المشاركة في هذه الشعيرة، كما ذكرنا في فصل سلوم العرب.

ويتوجه الغزاة إلى فلاة الجو الذي يتوقعون أن القبيلة التي يريدون سلبها تقطنه. وإن صادف الغزاة أحدا في طريقهم قبضوا عليه وحبسوه معهم حتى لا يُنذر بهم ويحاولون استنطاقه بالقوة وانتزاع ما يمكنهم انتزاعه منه من معلومات يمكن أن تساعد في تنفيذ خطة الهجوم بنجاح. كما يحرص الغزاة على عدم إيقاد النيران ليلا حتى لا يلفتوا الانتباه لأنفسهم، وغالبا ما يكون تحركهم في الليل ويختفون في النهار. وقبل الوصول إلى هدفهم يرسل العقيد طلوع، سبور، عيون للبحث عن الإبل والتعرف على قوة أهلها وعدد خيلهم وعدد نيرانهم وما إذا كانوا متسلحين ببنادق أو رماح، وغير ذلك من المعلومات الضرورية. وأثناء تحركهم يرسل العقيد في الصباح وفي المساء أنشط الرجال وأخفهم حركة وأحدّمهم بصرا، وأربطهم جأشا أيضا، ليتسلق أعلى مكان حولهم ليستكشف المنطقة "يقفر الأرض" تحسبا للأعداء وبحثا عن أنواع الإبل التي يمكن نهبها. وما أكثر القصائد التي يفتخر أصحابها بقيامهم بمهمة الرقبية أو الدليلة أو السبر، لأنها مهام صعبة وخطرة لا يقوم بها إلا الشجعان والأكفاء من الرجال. يقول كعب بن سعد الغنوي في رثاء أخيه:

كأن أبا المغوار لم يوف مرقبا
ويقول ربيعة بن الكوند الضبي:

ومرقبة يأم عمرو يخافها الـ
نميت إليها والنجوم شوابك
محلقة في الجو صعر كأنها
ويقول ربيعة بن مقروم الضبي:

ومرباءة أوفيت جنح أصيلة
ربيئة جيش أو ربيعة مقنب
ويقول عيد ابن فاضل المريخي:

ياكثر ما كزوني الشوخ عساس
أركض على المرقاب ما نيب كهاس
ياكثر ما طالعتها عقب الأياس
عزل كميّه حاسها داخ الراس
كم سابق مني تدرفس على الراس

سبر على دغم الخشوم الفطائر
أركض على المرقاب عجل واذاير
واصبح يدير الشيخ فيها البصاير
وخلّى جنبها فيه نطل العثاير
لى حرك المشقاص ملح الذخاير^(١)

(١) الشوخ: الشيوخ. عساس: رائد. سبر: عين. كهاس: بليد متلكئ. اذاير: أتلفت بحدز. الاياس: الأيس منها، ويقصد أنه رأى إبلا في المرعى بعدما بيئس القوم من أنهم سيجدون غنيمة ينهبونها. واصبح يدير الشيخ فيها البصاير: أصبح عقيد القوم يدير الرأي ويتدبر خطة لنهب الإبل. عزل كميّه: الكمي هم الكمين، أي القوة الاحتياطية خلف

ويقول سلطان الادغم السبيعي:

اليوم يناصر غدى عارضي شيب
عقب الشباب وعقب ذك التعاجيب
ياطول ما شرفّت روس المراقيب
إلى زمت لي عبلّة دونها الذيب
وردتها عوص النضا والاصاحيب
أدلّ من مشقاص هدف العراقيب

ويقول راضي الشحمي من السبعة من عنزة:

تركتكم ياناس مير اتركوني
ياما على عوص الركاب تبعوني
اليوم عود طايحات سنوني
لى قالوا المرقاب ما ني مهوني
أدلّهم لى قطن الشنون
ياما اطلبن شوف بعيد عيوني
يلومني خطو الصبي المجون
اللي ليا شاف الوليمه بطون

من عقب ما كنه جناح الغراب
اليوم عود في مروفة حبابي
دليلة للجيش خضع الرقاب
رهراة فيها يزّم السراب
دلّيتهم رس بعيد وغابي
لى ورد حوض مقفّات العقاب^(١)

ترك الدول ليا تداعوا بفرقا
من فوق حمرا تسرق الدو سرقا
وسوالفي ما وشحوهن بزرقا
ياما رقيته وانحدر منه وارقي
أدلّ من حمامة الريش ورقا
وجدي على شوفي طويل مَعْرَقِي
ينبش وهو شاة مع الناس برقا
ويضحك الى منه من الزاد ترقا^(٢)

وأحيانا قد ينظم الرقيبة ما لديه من معلومات على شكل أحذية يتغنى بها لأصحابه. يقول السليك بن السلكة:

ياصاحبي ألا لحي بالوادي
اتنظران قليلا ريث غفلت هم
ويقول شاعر من مطير بني عبد الله:
الدرب خشم كعيب وادني ضرابين
ومربعات من سميرا ليا التين
ما عندها الا ناقلين الحواجين

الا عبيد وأم بين أنواد
ام تعدوان فإن الريح للعادي

ومن عند ساق ليا ركز عظم عاجه
ومن خشم فعانة ليا ادني العاجه
ولها على الوادي الكبير اندلاجه

وقبل شن الغارة يتوقف الغزاة ليتدارسوا خطة الهجوم ويبدأ العقيد بتوزيع رجاله "يَعزّل قومه" إلى مغيره وكمين وعصايه. المغيره هم الذين يشنون الغارة وينهبون الأبل، والعصايه هم الذين يتولون ضرب الإبل المنهوبة "الوسيق"، "الفود" بعصيتهم وسوقها نحو الجهة التي يريدون الهرب منها، والكمين، ويسمى أيضا الصابور أو المركي، وهم أشبه بقوة الإسناد أو القوة الاحتياطية الذين يتولون صد هجمات النفير

المهاجمين ومهمتهم صد القوم الذين يحاولون استنقاذ الإبل بعدما تنهبها القوم المغيرة. خلى جنبها فيه نطل العتائر: الجنب هم الفرسان الذين يذهبون مع الإبل إلى المرعى لحمايتها ويقول إنهم استماتوا للدفاع عن إبلهم ولكن بدون فائدة. المشقاص: زند البندقية الذي يفجر الذخيرة.

(١) يزّم السراب: يرتفع. هدف العراقيب: البواريد، وعقب البارود فيه انحناء واعوجاج "مهدف"، يقول إنه أدل من زناد البندقية الذي لا يخطئ الورود على حوض البارود.

(٢) قطن الشنون: انتهى الماء الذي في قرب الغزاة. يضحك الى منه من الزاد ترقا: يضحك حينما يمتلئ بطنه من الطعام ويصل الزاد إلى ترقوته.

"الغزوع" من أصحاب الإبل الذين ينفرون "يفزعون" محاولين استنقاذها من الغزاة: يفكّون خيل المغار من خيل الفزعه. وينسحب الكمين وفق خطة محكمة بحيث يتراجع بعض منهم ويبقى البعض الآخر يحمي ظهورهم ويشاغل النفير عنهم، ثم يتمترس المتراجعون في موقعهم الخلفي ويشاغلوا النفير ليعطوا رفاقهم فرصة للانسحاب والتمترس خلفهم، وهكذا بالتناوب. أما الزمالة فلا يشتركون في القتال وإنما ينفصلون عن المغيرين قبل الغارة بليلة أو ليلتين ويبقون بأحمالهم من الماء والزاد بعيدا عن ساحة المعركة في انتظار عودة رفاقهم الذين يضربون لهم موعدا يتفقون عليه. وإذا كان عدد الغزاة قليلا فإنهم ينيخون ركائبهم بعيدا عن ساحة المعركة ويوكلون حراستها إلى واحد أو اثنين من رفاقهم ويتسللون متخفين بين الأشجار والأحجار "يعدون على البلب مع الغنار" ويشنون الغارة على الأقدام. ونظرا لإمكانية تشتت الغزاة وتفرقهم جراء الفوضى التي تصاحب الغارة فإنهم يضربون لأنفسهم مواعدين في مكانين مختلفين، قريب وبعيد. موعد المكان القريب يسمى وعد الركاب، وهو عادة عند الركائب التي أودعوها مع رفاقهم أو عند الزماميل إن كان معهم زماميل، ومن يصل إلى هذا المكان ينتظر لمدة محدودة ومتفق عليها، وإن فقدوا أحدا من رفاقهم ولم يحضر إلى موعد الركاب ذهبوا لانتظاره في موعد المكان البعيد "الوعد الكذاب".

ونجاح الغارة يتطلب توفر عوامل أهمها المباغثة والسرعة. الهدف هو خطف الإبل والهرب بها بعيدا قبل أن يتمكن أصحابها من جمع صفوفهم واستكمال تأهبهم لصد الغزاة واستنقاذ الإبل. وقد تفشل خطة الغزاة إذا رأى الرقيب من بعد وحذر أهل البيوت مستصرخا: ظهورهن ياهل الخيل، عليكم غاره، فيلتقط الرجال أسلحتهم وتسارع النساء إلى الخيل لتفك قيدها، وزوجة الرجل، أو اخته، هي التي تعتني بفرسه وتحمل معها مفتاح قيده. ويلعب التوقيت دورا حاسما في نجاح الغارة. وأفضل الأوقات أول النهار حينما تتجمع الإبل وتسير دفعة واحدة باتجاه المرعى أو آخر النهار حينما تتجمع وتسير باتجاه البيوت، والمساء أفضل ليختفي الغزاة مع الغنيمية في ظلام الليل. أما الإبل المنتشرة في المرعى "النشر"، "الطرش" فإنه يصعب جمعها في غارة خاطفة والكسب في هذه الحالة يكون قليلا لكنه أسهل وأمن إلى حد ما لبعد الإبل عن بيوت القبيلة ورجالها. وفي الليل يصعب الهجوم على الإبل وسط البيوت وفك عقلها وإثارتها من مباركتها وسوقها بين الأطناب المتمددة على الأرض والتي يتعذر رؤيتها في الظلام وتشكل إعاقة حقيقية. والغارة الصباحية تسمى صباح، ويقولون: القوم صبّحونا، والغارة الليلية يسمونها هجاد أو بيات وفي هذه الحالة يعمد الغزاة إلى العمود الأوسط في كل بيت يقتلعوه ليسقط البيت على من فيه ولا يستطيعون التخلص منه والخروج لدافعة المهاجمين. والبعض يعتبر الغارة ليلا غدرا

لا يليق، خصوصا إذا كان القوم المستهدفون يمتون بصلة قرابة قبلية للغزاة (Musil 1927: 8-9, 47)، إلا أن الغزاة قد يضطرون لذلك إذا أحسوا في أنفسهم ضعفا أو قلة في العدد أمام القوة المقابلة. وإذا شن الغزاة غارتهم فإنهم لا يستميون في سبيل الحصول على الإبل وإذا واجهوا مقاومة عنيفة من البداية ووجدوا أن أهلها مستعدين للقائهم تركوها وهربوا. كما أن المدافعين كذلك لا يستميون في الدفاع عن إبلهم إذا تبين لهم أن لا فائدة من ذلك وأن القوة المهاجمة فوق طاقتهم "قوم حمرا". وإذا كان أهل الغزاة قريبا فإنهم في حالة النصر لا يكتفون بسوق الإبل والخيل، بل إنهم أيضا يسوقون الأغنام ويحملون البيوت وما فيها غنيمة لهم.

وفي الوقت الذي يتمكن فيه أهل الإبل من جمع صفوفهم وبعد أن تصلهم النجدة "الفرعة" من النجوع القريبة منهم، "إلى تلايمت الفروع"، يكون الغزاة قد انسحبوا وأبعدوا وربما لفهم الليل بظلامه الدامس. ومعرفة وسم ركائب الغزاة يساعد في معرفة قبيلتهم وبالتالي معرفة في أي اتجاه سينقلبون ويتبعهم أهل الإبل "يطلبونهم" على هذا الأساس، وربما أشعلوا المشاعل في الليل ليقتفوا أثر الغزاة الذين يسوقون الإبل في أقصى سرعتها وطاقتها ولا يتوقفون عن ذلك ليل نهار حتى يخرجون من ديار عدوهم ويصلون إلى مكان آمن. وإذا لم يتمكن أهل الإبل من اللحاق بالغزاة قبل أن يخفيهم الليل فإنهم يقدرّون المورد الذي سيضطر الغزاة للتوقف عنده للسقيا أو المكان الذي سيطلع عليهم فيه الصباح فيتجهون فورا إلى ذلك المكان ويترصدون لهم فيه "يتلقفون لهم". والمعركة الشرسة لا تحدث عادة في المرعى أو في مراح الإبل ساعة خطفها، بل حينما يلحق أهل الإبل "الطلب" بالغزاة في اليوم التالي. وحينما يتقابل الفريقان تبدأ المناوشات والمطاردات والمبارزات التي قد تستغرق معظم النهار، إن لم يكن النهار كله. وإذا شعر الغزاة بأنهم أمام قوة قاهرة فإنهم يتخلون عن الإبل التي كسبوها "الجهامة"، "الوسيق" لكنهم يستبسلون في الدفاع عن ركائبهم "جيشهم"، "ركائبهم" وعن أنفسهم "صار الطق عند الركاب والارقاب". وإذا قرب منهم أهل الإبل يضطرون إلى إناخة ركائبهم للنزول والتصدي للطلب وتشتيتهم ثم يركبون وينهزمون، وهكذا دواليك. ولربما قرنوا ركائبهم إلى بعضها بعضا حتى يجبروها على السير في اتجاه واحد ولا تشذ وتتشتت وحتى لا تستطيع خيل الأعداء اختراق صفوفهم فينخذلون وتضعف مقاومتهم. وإذا وجد الفريق الأضعف نفسه في موقف حرج وأحاط بهم الفريق الأقوى وحاصروهم "حالوا عليهم" فإنهم ينيخون واحدة من ركائبهم ويعقلونها غنيمة باردة للفريق الأقوى عليهم يكتفون بها ويكفون عنهم، وهذه الناقة تسمى فُعَيْدِ رِدَه. ومن الحيل التي يلجأ إليها أهل الإبل لتشتيت الغزاة وتفريق صفوفهم هو أن يعمدوا أحدهم، قبل أن يعلم الغزاة بوجودهم ويتنبهوا لقربهم منهم، ليسوق عددا صغيرا من الإبل، يتراوح من الثلاث إلى الخمس، ويسمونه زريق،

ويتعمد المرور أمام الغزاة. وما أن يقع نظر عقيد الغزو على الزريق حتى يبادر مع نفر من قومه لاعتراضه ونهبه. ويستطرد سائق الزريق للعقيد حتى يبعد به عن قومه. ثم ينقض أهل الإبل على الغزاة الذين تضعف عريمتهم في غياب العقيد وتحل الفوضى في صفوفهم. وهذه من الخدع القديمة التي كثيرا ما لجأ لها عرب الجاهلية. يقول أبو عبيدة في النقائض عن يوم مَلِيحة أن بسطام بن قيس:

خرج مغتزيا وذلك حين ولى الربيع واشتد الصيف وقد توجهت بنو يربوع بينهم وبين طَلَح فذُكِر لأخريات بني يربوع أنهم رأوا منسرا فبعثوا مُرسلا أخوا بني حرملة بن هرمي بن رياح فأشرف ضَفْرَةَ حومل (والضَفْرَةَ وَالْعَقْدَةَ الحبل المتراكم من الرمل) فَرُفِعَ له عشرون بعيرا يُعْدُهُن عند طلحات حومل فحسب أنه ليس غيرهم والجيش في الخبراء دونهم (والخبراء التي تمسك الماء وتنبت السدر والجماعة خباري) فكر يدعو آل يربوع الغنيمة فتسارع الناس أيهم يسبق إليها فجاءوا متقطعين فسقطوا على الجيش من دون الطلحات في الخبراء فلم تجئ عُصبة إلا أُخْذوا وَقُتِلَ يومئذٍ عصمة بن النحار بن ضباب بن أزم بن عبيد (عبيدة ١٩٠٥/١: ٧٣).

وإذا حمي وطيس المعركة "إلى عَسَم الطراد بينهم" واجتلدوا في الميدان "المحاس" لا تسمع إلا أصوات الفرسان يهددون أعداءهم ويتذامرون فيما بينهم ويحظ بعضهم بعضا: خيال الرحمن وانا خو نمشه، والله اللي ما شديتوهن بيوم مبارك، دُعار السبايا وانا اخو دليل، إلى نلينا من يهوش؟! اليوم اقرد الايام عليكم، يابعد اهلكم اليوم عليكم، خيال البلها وانا ابن مذود، تبون اباعرنا واباعركم عند اهلكم، خيال الكحلا وانا ابن نابت، الى لحقناها وسيق عطفت، ياما فكيت مثلهن من مثلكم، ياما فكيت بهسته من ستين، وين اخو صيته؛ فلان ياخلف امي وابوي، اجدع الخيال. وإذا ضم الغزو أشتاتا مختلطة من فروع القبيلة وبطونها المختلفة فإن الرجل في المأزق ينحى أقرب الناس إليه من بين هذه الجموع: فلان يالح رقبتي؛ ويندب جماعته الأدينين باسم أقرب جد مشترك يجمعه بهم في خمسة أو في فصيل واحد: وين اولاد صقر ياحق ابوي وجدي.

إذا تمكن الغزاة من الهرب بغنيمتهم فإنهم لا يتوقفون إلا إذا وصلوا ديرتهم أو إلى منطقة يأمنون فيها من المطاردة. وحالما يصلون مأمّنهم يلح الغزو على عقيدهم بأن يتوقف ويقسم الغنيمة "يَعَزَلُ الفود" فيما بينهم: خلنا نتقاسمها ونقطع شف اهلهنا منها، لأن الغزاة بعدما يتقاسمون الفود يذهب كل منهم في اتجاه مختلف ويتفرقون على نجوعهم فتتشنت الإبل ويصعب على أهلها استردادها، كما أن سوقها وهي متفرقة أسهل من سوقها وهي مجتمعة. وهناك عدة طرق لتوزيع الكسب واقتسام الغنيمة يكون الغزاة قد اتفقوا مع العقيد على أحدها قبل الهجوم. فإذا كان الغزاة ملفقين من عشائر مختلفة ولكل منهم عقيد فإنهم لا يتقاسمون الغنيمة، بل يطبقون مبدأ كل مغيرة وفالها، أو كما يقولون أيضا: قوم تباري ولا هي خشير، كل كسبه له، أي أن من كسب شيئا فهو له لا يشاركه فيه أحد. وكل من لمس ناقه برمحه أو عصاه أو عقد عليها عقاله أو غترته وقت الغارة فهي له، وعادة ما يُشْهَد الكسب أحدا من

قومه على أن تلك الناقة له وأنه السباق إليها. وقد تحدث مشادات بين الغزو على أحد النياق كل يدعي أنها من نصيبه "ينغابشون عليها" ويسمونها غباشه أو عشاوه. أما إذا كان الغزاة يتوقعون مقاومة عنيفة وأن الكسب لن يكون سهلا فإنهم يتفوقون على أن يتشاركوا فيما يكسبون وذلك حتى لا ينشغلوا بحيازة الإبل ويصرفون همهم للقتال واثقين من أنهم في حالة النصر سيحصل كل منهم على حقه من الغنيمة.

وعقيد الغزو هو الذي يتولى مهمة تقسيم الغنيمة. ويتوقف نصيب الرجل على دوره في الغزو وكفاءته في تنفيذ المهام التي يسندها إليه العقيد وما إذا كان فقد فرسه أو راحلته في الغارة. فنصيب الفارس من العزل يختلف عن راعي المطية وعن الزمّال، كذلك الدليله والرقيب والسبر والمدبّ و"البواردي" كل له حق معلوم. وربما احتال الواحد منهم وعمد إلى إخفاء أحد الإبل الشاذة ليضمها إلى سهمه بعد القسمة دون أن يعلم العقيد بذلك. وأيا كانت طريقة العزل المتفق عليها فإن نصيب العقيد مضمون حسب التقاليد المتبعة، وهو يختلف من عقيد إلى آخر، حسب اختلاف المكانة. ويحظى العقيد دوماً بنصيب الأسد، مثله مثل السيد أو الرئيس في العصر الجاهلي الذي حدد نصيبه عبدالله بن غنمة الضبي في رثائه لبسطام بن قيس في قوله:

لك المربع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول
المربع ربع الغنيمة يأخذه الرئيس، والنشيطه أن ينشط، أي يأخذ، الرئيس عند الاقتسام العلق النفيس، والصفى الشيء النادر الذي يصطفيه لنفسه، وهو ما يسميه البدو الخريزه، والفضول ما يتبقى بعد القسمة، وهو ما يسميه البدو العقبة. وقد يكون من نصيب العقيد عند البدو المتأخرين كل بعير تغير لون الوبر على دفتيه من آثار الرحل ويسمونه أبيض دفّ أو بعير الشداد، وقد يكون من نصيبه كل ناقة وضحاء، وقد يكون له الحق في أن يختار الناقة التي تعجبه لتكون من نصيبه "خريزه" وكذلك العايد وهو التي تأتي بعد الخريزة في النفاسة. ومن حق العقيد الهارج وتعني العبد، لو كان من ضمن الكسب (والبعض يقول إن الهارج هو البندقية لأنها تحدث صوتاً عند الإطلاق)، والمارج، وهو الفرس الذي كسبوه بعدما سقط عنه فارسه ولا يعرفون من جدع الفارس. أما الفرس القلاعه، فإنها لمن يقلعها، أي من يجدها عنها فارسها ويأخذها منه عنوة. وعند الاقتسام يخير العقيد أصحابه بين أن يختار كل واحد منهم ناقة أو ناقتين ويكون الباقي، وهو ما يسمى العقبة، من نصيب العقيد، أو أن ينتقي هو من الغنيمة أولاً ويترك الباقي لهم يتقاسمونه. وتتم القسمة بأن يأخذ العقيد عصاة كل رجل، أي العقال الذي يلفه على راسه، ويجمعها في يده ثم يحذفها على الإبل يمينا وشمالا ومن وقعت عصاة رأسه على بعير فهو من نصيبه، وما تبقى من الإبل يقسم بنفس الطريقة، وهكذا حتى تنتهي القسمة. وإذا ما تبقى من الغنيمة بعد توزيعها عدد قليل من الإبل غير قابل للقسمة فإن العقيد يصيح برفاقه: مالحوا، وهي كلمة تقال عادة عند ما يطلب شخص من شخص آخر أن ينهض ليشاركة في طعامه،

فينقض القوم على ما تبقى من الأبل ويتناهبونها ومن يسبق على شيء ويهرب به فهو له. وقد لا يحصل الشخص العادي من الغنيمة إلا على ناقتين أو ثلاث بينما قد يتعدى نصيب العقيد المائة ناقة، تبعا لحجم الغنيمة وتبعاً لمكانته في قومه، إضافة إلى نفائس الخيل والإبل والسلاح. ويختار العقيد من الكسب ناقة للذبح "عقيره" ينحرها ويفرق لحمها على رفاقه. ويأخذ الرجال من دم العقيره ويخضبون رقاب الإبل التي كسبوها ويسوقونها إلى الحي وهم يغنون أغاني الكسب: ياما حلى وسم جديدٍ نجره // جر العذارى للغياب الرهايف، ياهيه ياللا أو ياما قطعنا دونهن من زواجه // ترمي بها فرق الجوازي عيالها، ياهيه ياللا. أما إذا رجع الغزاة خائبين أو قُتل منهم أحد فإنهم يتلثمون ولا يغنون أغاني الكسب، كما أنهم يكفلون سفايف الخروج، أى يكفون الأهداب التي يزينون بها خروجهم ويضعونها داخل الخروج. كما أن من عاداتهم أن القوم المنهوبين لا يوقدون ناراً لعدة أيام إلا لو تمكّنوا من استعادة منهوباتهم. انظر إلى الأبيات الأخيرة من هذه المقطوعة لمريبد العدوانى التي تصور فيها نفسه يقود منسرا من قومه لمباغته الأعداء ونهب إبلهم وما يتحمّله في ذلك من المشقة والعناء. ويشير في الأبيات الأخيرة إلى الفرق بين من يؤوب إلى أهله كاسباً ومن يؤوب إليهم خائباً:

سَمَّيت بالرحمن وادليت بالفال
تنبز مِبَاهِرِهَا المصَالِبِ وحبال
وَمَدَّوَا معي ربي صعيبين الأفعال
أبعِد مصابيح النضا وأبجد اللال
النوم خَلِيَّتَهُ بريره للانذال
أرقب على نشر ليَا قَوْض المَال
ننحى الرُوكُ بنحور عجلات الأهدال
نطوى العمايم والمواجيف قِقال^(١)

لى ضاق صدري صبح الاثنين مديت
للكور فوق سَجَلَةِ الهجن شدت
شدوا على الطوعات من حيث ما انويت
وليا ركبنا بالمعادي تقاصيت
كم ليلة في نومها ما تهئيت
وكم مرقب وقت الضحى فيه عدت
مرات نلفي بالغنا والتصاويت
ومرات نلفي والمزاهب مباحيت

وهذه أبيات للشاعر سليمان اليمنى يصف فيها أحد غارات ساجر الرفدي:

يهوي على ناح ويصطي على ناح
وطالع على يمناه خَلْفَات ولقاح
براس اللوى وادلى على المال سراج
قطعان ابن كردوس كساب الامداح
حل الفطور وقال سموا بالافلاح
فزعة قطين وبه عشاشيق طمّاح

حرّ شلع من راس سَقَان وانهام
هام العراق وقالوا الدرب قِدام
ونوى على درب المقادير جَزَام
واقفوا على الطوعات عجلات الاولام
صكوا بهن صكة على الزاد صيَام
لحقوا هل العرفا وطابور الاروام

(١) صبح الاثنين: يتفعلون ببعض أيام الأسبوع مثل يوم الاثنين للانطلاق إلى الغزو. تنبز مِبَاهِرِهَا: لسمنتها أباهرها عالية تزل عنها الأكوار. بالمعادي تقاصيت: أقطع المسافات الطويلة لشن الغارات البعيدة "القضية" على الأعداء. أبعِد مصابيح النضا: تمسى ركابي في مكان وتصبح في مكان بعيد عنه. أبجد اللال: أفري المفازات غير آبه بالمخاطر. النوم خَلِيَّتَهُ بريره للانذال: تركت النوم هدية منى لأرائل الناس. نشر: الإبل في المرعى. قوض المال: انطلق نحو المرعى. ننحى: نسوق بهمة. الروك: مفردا روكه الإبل المنهوبة. بنحور عجلات الأهدال: نسوق الغنائم أمام ركائبنا السريعة في سيرها. المزاهب مباحيت: مزاهبهم خالية من الطعام. نطوى العمايم: متلثمين لا نكلم أحدا ولا نلوي على شيء. المواجيف ققال: ركائبنا الموجفة ضامرة لطول المسير.

هازوا ورازوا والدخن بينهم زام
وتلافتن حرش العراقيب سجام
وغدى لهم عقب النوادية نمنام
واقفوا معيفين عقب ضرب وزحام

ويبرر الغزاة نهبهم لإبل الآخرين بأن هذه ممارسات تقرها أعراف الصحراء،
فهي أشبه بالقروض والأسلاف المتبادلة فيما بينهم والتي سوف تُسترد وتُستوفى إن
عاجلاً أو أجلاً بحيث يتعادل فرقاء النزاع على المدى الطويل، كما سبق وأن بينا. كما
نجدهم في أشعارهم يسوقون مبررات يؤكدون فيها على أنهم ينهبون مال البخيل
والشحيح ليوزعوه على المحتاجين والبؤساء، مثلهم في ذلك مثل الشخصية
الأسطورية روبن هود Robin Hood. فهذا شليويح العطاوي يقول إنه ينهب إبل البخيل
الذي لا يقدم القرى للضيوف ولا يسأل عن جاره ويساعده إذا احتاج:

يالله طلبتك من حلال البخيلين
اللي نباه لخاطر الله يجي شين
وتقول أبيات من قصيدة منسوبة لشايح
الأمسح يمتدح ذلوله:

أبي عليها نقضة الجزو غزوه
نبي عليها نود قن مقصر
بخيل على الجيران والضيف يا لفي
ويقول ابن قويلف يصف نفسه:

صديق صعلوك قليل زمايله
وعدو مال كثر البخل نوقه

وهذا ليس مجرد ادعاء بل إن الغزاة حالما يصلون إلى الحي يتوافد عليهم
أقاربهم وبنو عموماتهم يطلبون منهم شيئاً مما كسبوه "يُتَحَدَّثُونَهُمْ"، وربما وزعوا
الغنيمة كلها وذهبت حذايا ولم يبق منها في أيديهم شيئاً. انظر إلى البيت الأخير من
هذه المقطوعة قالها شبيب ابن مجلي المطيري في إطراء صاهود ابن لامي:

كم فاطر صاهود بيّد جهدها
عقب الشحم والزين يلثع حفاها
كم هجمة بالقريض طوى عددها
قادات ولا ردت على من رجاها^(١)

(١) انهام: اندفع بهمة. يهوي: ينطلق مسرعا. يصطي: يهجم بقوة وشجاعة، من السطوة. ناح: ناحية. جزام: مصمم.
ادلى: هجم. الاولام: السير السريع. هل العرفا: عزوة قبيلة السبعة الذين نهب ساجر إبلهم ونخوتهم "خيال
العرفا". طابور الاروام: قبيلة الخرصه من الفدعان جماعة ابن قعيشيش يلقبون الروم تشبيها لهم بعساكر الترك
لشجاعتهم وثباتهم. فزعة قطين: أهل القطين من السبعة هبوا لاستنقاذ إبلهم التي نهبها ساجر. عشاشيق طماح:
من بين فرسان السبعة فتيان عشاق والعاشق عادة يستमित في القتال ويبيدي شجاعة خارقة لتعجب به فتاة
أحلامه. لاح: تلوح. حرش العراقيب: الإبل أخفافها حرشاء، يقول إنها تلافتت وأدارت رؤوسها نحو أصحابها
كأنها تتوسل لهم أن ينقذوها من الغزاة. شرهن: من الشره والعشم والتوقع. النوادية: ندب بعضهم بعضا
بصوت مرتفع. نمنام: الأصوات الخافتة بعد أن اشتدت عليهم وطأة القتال من الغزاة وبدأ اليأس يدب إلى
قلوبهم. كلاح: كالحه. عديم: شجاع.

(٢) بيّد: أباد. يلثع حفاها: يسيل الدم من خفها لطول المسير ووعورة الطريق والمخاطر. طوى عددها: نهبها وطوى
أهلها العدة التي كانوا يستخدمونها لجذب الماء لها من البئر وربها لأنهم يسوا من استردادها.

والى كسب نوماسها ما حسدها يمناه تعطي كل يمنى مالاها
 وإذا مات منهم فارس مشهور أو عقيد قوم بعيد الغزوات رثوه مذكريين بأن
 خيلهم وركائبهم استراحت حيث لم يعودوا يشدونها ويغيرون عليها، كما يذكرون
 أعداءه بأنهم استراحوا منه وأصبح بإمكانهم رعي إبلهم أينما شاءوا فهي لم تعد
 عرضة لغزواته. يقول جرير:

رأيت جِياد الخيل بعدك عُرِّيت وحلَّت رحال اليعمالات المحانق
 يقول يزيد بن الصقيل العقيلي:

ألا قل لأرباب المخائض أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد
 ويقول ابن سويرح يرثي صنيتان ابن شميلان الملقب "لوفان" لكثرة مغازيه وهو
 من فرسان القلادان من بني رشيد:

يا طير بشر نازل «الحسو» يرتاح ينزل بقطعانه بروس المَنادي^(١)
 بشر هل الغثمه وأهل نفي ووضاح ليا فجّ وام فجيج و ام المعادي
 لا والله الا توّ ما هجننا ارتاح برّيت خفافه عقب ماهي بياد

لا يشغل ذهن البدوي أمر مثلما يشغله الغزو الذي يستحوذ على اهتمامه ويلون
 تفكيره ونظرته إلى العالم من حوله. الغزو ديدن البدو وهجيراهم ويصعب تصور
 حياتهم بدونه. إنه وسيلة من وسائل تكيفهم مع تقلبات الحياة في الصحراء. يقول
 ديكسون "إن الغزو يظهر صلابة الرجل وشجاعته ومهارته، ولذلك ينظرون إليه
 باحترام ويشجعون على ممارسته" (Dickson 1949: 341). ينشأ البدوي منذ نعومة
 أظفاره وهو يسمع قصائد الغزاة وسوالف الغزو المثيرة التي يتعلم منها أصول هذا
 الفن وأسراره والتي تلهب خياله فيشب وهو يحلم بمرافقة الغزاة لعله يكسب مثلما
 يكسبون ولعله يحقق من الأفعال الجريئة والمواقف البطولية ما يستحق الذكر
 والإشادة ويلفت إليه الانتباه ويشكل موضوعاً لقصيدة أو سألقة يفتخر بها وتخلد
 اسمه مثل هذه الأبيات التي قالها حرفاش ابن ناشي الهاجري من الكدادات من
 آل محمد يفتخر بأن ذلوله التي يغزو عليها لم يدفع فيها ثمناً وإنما كسبها من
 الأعداء والمعركة محتدمة بين الجموع:

لي فاطر زين بها خافق الطوق تزهى الجنائب في ظهرها جداد
 ملحا معنقها من اللجف منتوق خُلافها كنه عراض التوادي
 لا جاتني ورث ولا جاتني سوق ولا عرضوها الجلب صوب البلاد
 خذبتها والعج متركز فوق عند الطعمون وداهكات الزيادي

الغزو بما فيه من مخاطر ومواقف صعبة يوفر الفرصة للمرء كي يستعرض أمام
 الآخرين رصيده من الفروسية والمروءة والنخوة والشهامة والإيثار، وغير ذلك من
 الصفات الرجولية. يكاد يكون الغزو هو الطريق الوحيد المتاح أمام البدوي ليس فقط

(١) المنادي: مفرداً مندى وهو المرعى القريب من موارد الماء.

للكسب المادي وإنما إثبات الجرأة والعصامية وتحقيق مكانة بين رجال القبيلة وكسب احترامهم وتقديرهم. وعقيد الغزو لا يهمله الكسب المادي بقدر ما يهمله أن يبرهن على جلده وجرأته. الأهم من كسب الثروة هو كسب الشهرة والمكانة وإثبات القدرة على التخطيط الاستراتيجي والقدرة على التصرف في المواقف الصعبة وعلى امتلاك الحظ وصفات القيادة وزعامة الرجال والقدرة على إرضاء الجميع وعلى العدالة في تقسيم الغنيمة. الغزو هو المدرسة التي يتخرج منها القادة في المجتمع البدوي. والغزو هو فرصة البدوي ليبرهن على شجاعته، والشجاعة من أهم القيم التي يحترمها البدو، وهو كذلك فرصته للكسب الذي يمكنه من مزاوله الكرم، والكرم أهم قيمة يحترمها البدو. الكرم والشجاعة تحققان للإنسان الذكر، بمعنى أن تلهج الألسن بذكره وتشيد بأفعاله. الثناء والذكر الطيب من أهم الأهداف التي يسعى البدوي إلى تحقيقها في حياته ويأمل أن تبقى له بعد مماته. يقول تشارلز داوتي:

أتكلم كثيراً عن الكرم العربي، لأنني غالباً ما سُئلت عن ذلك في أوروبا ومن قبل أشخاص لهم قيمتهم. لقد شهدت أن الكرم عند أهل بيوت الشعر، الاحتراف واللفظ مع الغريب وعابر السبيل في بلاد لا تعرف إلا الخوف والفقر والشقاء هو بمثابة الواجب الديني. وهذا ما أكده لي أيضاً أهل المدن الذين قالوا إن مرد ذلك الرغبة في تحقيق السمعة الطيبة التي ينشرها المسافرون في طريقهم، حيث أن المضيف التالي سوف يسأل ضيوفه: من استضافكم ليلة البارحة، وهل أكرم مثواكم؟ (Doughty 1921/II: 259-60).

إذا برهن الفتى على شجاعته تردد ذكره على ألسن القوم في منتدياتهم ودرج اسمه على شفاه الجميلات وأصبح أحدثه الحي. وفي الأبيات التالية يلج جهاز ابن شرار، برشاقة عجيبة، إلى موضوع الغزو وذلك من خلال الغزل ليؤكد أن قلبه متعلق بالغزوات واكتساب المجد والسمعة:

وان كان كذب فـخـسـر تـابـعـيـنـه
اخبر ترى ان اهل الهوى ساهجينه
لا شك مصلوحه لمن قاضـبـيـنـه
تهوي اهواي مـوـحـش مـطـلـقـيـنـه
لى طالعت جـوـل تـقـطـع مـنـيـنـه
ليا قـلـطـوا سـبـارهم خـابـرـيـنـه
ولا سـبـرـوه الا انهم عـارـفـيـنـه
رد الخـبـر من حيث هم مـوـعـديـنـه
قـدـامـكم بوش هـلـه حـاضـرـيـنـه
والموت عند ادباشهم محتسـيـنـه
واستظـهـروا لبس لهم شـايـلـيـنـه
بظهور زلـبـات الرمك مع هـجـيـنـه
دايم مـعـز لـابـة تـابـعـيـنـه
والموت دون اقطاعهم واصلـيـنـه

الود كان انه تهياً بالاوفاق
لى شفت لك زرع على جال مطراق
والخيزران اخير مع كل سواق
ترى الهوى صفراً تزعوق تزعواق
شيهانة توهف على برق الاشناق
اخترت عن طرد الهوى عرية الساق
سبارهم حذروف قـرم ليا واق
ورد الهم المرود من حيث ما واق
قال اقدموا يارب مع حد الادراق
وشافوا لهم بدو يوالون الاشفاق
وتعصبوا بظهورهن كل مزهاق
و ادبهم المدب على قـد الادراق
وعدى بهم شيخ على الصح ما باق
ولحقوا طلب بدو يوالون الارهاق

للبوش هجّاج وللهوش فهّاق واللي يماري ربعتي متعبينه
راعوا على الفزعه وجا زرق واعلاق وكلّ يعدّ اللي نَعَقَبَ يمينه^(١)

وقد تحول الغزو على يد بعض الشعراء من ممارسة فعلية إلى موضوع شعري يرسمون لنا من خلاله صورا ومشاهد من هذه المغامرة المثيرة. وهذان مشهدان يرسمهما ابن سبيل لقوم من الغزاة خطفوا عددا ليس كثيرا من الإبل، شرشوح في المشهد الأول وشمشول في المشهد الثاني وكلاهما بنفس المعنى، وفروا بها، فأشعل أصحاب الإبل مشعلهم لاقتفاء أثر الغزاة وهبوا في طلبهم. ولما رأى الغزاة المشعل قصدوا جبلا "ضلع" لاللتجاء إليه والاحتماء من الطلب "زابينه". وللتمكن من الهرب اطرّد الغزاة الإبل الفتية والنشيطة من كسبهم "خفاه" وتخلوا عن الإبل البطيئة وتركوها تهيم في الصحراء "تدرج" مثل الأشجار المتناثرة "الدوح"، واضطر الغزاة إلى هذا الإجراء لأن ليس معهم من يحمل بارودا "مبندق"، وتواصلوا وحذروا بعضهم بعضا من التشنت والابتعاد عن بعضهم البعض لأنهم عرفوا من وسم ركاب الطلب أنهم أعداء حريصون على قطع رقابهم وسفك دمائهم "قطوع":

ياتل قلبي تل ركبٍ لشـرشـوح ربع على تالي الدبش خاطفينه
شافوا وراهم مشعل الشيخ له ضوح وتنحّروا ضلع زمي زابينه
شلتوا خفافه وادرج كنه الدوح أيضا ولاش مبندق مردفينه
قالوا ترى من فاخت الجيش مذبوح ربع قُطوع ووسمهم عارفينه
ويعيد ابن سبيل رسم الصورة في قصيدة أخرى مع إضافة بعض التفاصيل والمشاهد:

ياتل قلبي تل ركبٍ لشـمـشـول ربع مشاكيل على كنس حيل
شافوا وراهم مشعل الشيخ مشعول يوم أبرهزّ الليل شافوا رجاجيل
شافوا وراهم زول واقفوا كما الجول جول النعام اللي تقافا مظاليل
يوم خطفوهن روحن طفح جفول كنه يرمي من تحتهن هداميل
أو تل حصن مسربّ القبيض بحلول كتح النجوم وفاختوه الزماميل
في ماقع ما بين قاتل ومقتول طاحت حذاها والموارد مداهيل

(١) خسّر: خاسرون. مطراق: طريق. ساهجينه: طرقوه وخبروه قبلك. يقول إن الخيزران طري ولدن وجميل لكنه كذلك في يد من يملكه ويمسك به، أي ما الفائدة أن يعجبك ما ليس في يدك ولا تملكه، والخيزران هنا يرمز لجسم الفتاة الرشيق. صفرا: فرس لونها أبيض. تزعوق: تتخايل في سيرها. تهوي: تنطلق. موحش: طير الصقر الحر. شيهانة: أنثى الصقور، والشيهان من السلالات الثمينة. توهف: تهجم من عل. برق الاشناق: طيور الحباري. جول: سرب. تقطع ميينه: تفترسه بشراسة. عرية الساق: الفرس ساقها شعره نزر. سبارهم: رائدهم. حذروف: حاذق ومتمرس. قرم: شجاع يعتمد عليه. واق: أطل وأبصر. الادراق: مناطق التسلل الخفية. بوش: النعم في المرعى. أدباشهم: إبلهم. مزهاق: سريعة ونشيطة. ليس: ما يلبس من لباس الحرب مثل الدرع والطاسة. المدب: من يصددهم عن الهجوم حتى يأمرهم العقيد بذلك ليهجموا هجمة واحدة. زلبات الرمك: الخيل مكتملة النمو وهي لذلك في أوج قوتها ونشاطها. ما باق: لا يغير. لابة: قوم، جماعة. للبوش هجّاج وللهوش فهّاق: انقسم المهاجمون قسمين: قسم يسوق الإبل المنهوية هاربا بها، وهو الهجاج، وقسم يقاتل ليصد أهلها الذين يحاولون استردادها. زرق واعلاق: طعان. كل يعدّ اللي تعقب يمينه: بعد انفكك المعركة كل يحكي ما فعله وما حدث له.

خمسٍ مسيرتهن ولا طالعن زول
تشاوروا ما بين عاذل ومعدول
تخيروا من طيب الفود زعجول
ويقول يصف مشهداً من مشاهد المعركة:

ياوتتي ونّة طعين الشطيـــــره
خلي نهار الكون وسط الكسيـــــره
ولا يعرف الطالع من اية عشيره
ويقول عبيد ابن هويدي الدوسري:

ياتل قلبي تل خطو الوســـــايق
فيهم شفاحه واقتفاهم بيـــــارق
صاحوا عليهم نطلوا بالعلـــــايق

وهادن عقب ملافخ العرف والذيل
والعد الادنى حال دونه محاوليل^(١)
والمنقطع خلوه مثل المخاييل^(٢)

في ساعة يوخذ طمعها عشاوهِ
مـــــا له ولد عمٌ ولا له دناوهِ
من كل بدو نوهم بالعتـــــاوه^(٣)

شمشول زود وشعْثروه المشافيق
ولحق الطلب وحظوظهم بالتوافيق
ومن غير بصر جنبوه الطواريق^(٤)

الغزو والإبل

المعالجة الشعرية للإبل لا تقتصر على دورها في بث القصائد وتوصيل الرسائل وقطع المسافات التي تفصل بين المحب وحببيه أو بين الشاعر وممدوحه، كما بيناه في الفصل الذي تناولنا فيه رواية الشعر وتداوله، إذ لا يقل أهمية عن ذلك دورها في الغزوات والمغامرات اللصوصية. الإبل أعطت البدو قدرة فائقة على التعبئة والتجيش لشن الغارات أو صدها. حركية الإبل جعلت منها وسيلة مثلى يمتطيها الغزاة يجتازوا على ظهورها المساحات الشاسعة من الصحاري الموحشة والمظامي التي

(١) ربع مشاكيل: جماعة من الرجال الشجعان الأشداء. ابرهز الليل: انقضت ظلمته قبيل الصبح. طفح جفول: مسرعة في الهرب كأنها تطير ولا تلامس أقدامها الأرض. كنه يرمى من تحتها هداميل: لشدة سرعتها تحذف مناسمها الحصى من خلفها ويتطاير مثل قطع الهدوم "الهداميل"، أي الملابس البالية. مسرب القيض: القيض الذي يكثر فيه السراب لشدة وهج الشمس. كتح النجوم: أنواء القيض التي تكثر فيها رياح السموم المثيرة للغبار. فاخنوه الزماميل: الزماميل هم من ينقلون على إبلهم الماء والغذاء للخيل وركابها لكنهم أفختو ركاب الخيل، أي خالفوهم الطريق وذهبوا جهة أخرى وفقدوهم فلم يعد معهم لا ماء ولا طعام. طاحت ذاتها: سقطت أحذية الخيل التي تقي حوافرها من الحجارة والأرض الصلبة والوعرة ولذا أصبحت حوافرها تؤلمها ولم تعد قادرة على الجري السريع. والموارد مدهيل: لا يستطيعون ورود موارد الماء لأنها مأهولة بالأعداء. هادن عقب ملافخ العرف والذيل: هدأت الخيل وخارت قواها بعد أن كانت مليئة بالنشاط والحيوية. العد الادنى حال دونه محاوليل: الصحاري الشاسعة والمفازل "محاوليل" تفصل ما بينهم وبين أقرب الموارد لهم. زعجول: عدد قليل. والمنقطع: ما لا تستطيع مواصلة المسير. خلوه مثل المخاييل: تركوه هائماً في الصحراء مثل قطع الغيم المبعثرة في السماء.

(٢) الشطيهر: السلاح الشطيهر حاد السنان. نهار الكون: ساعة المعركة. الكسيهر: الهزيمة المنكرة. عشاوهِ: أن يأتي من هو أقوى منك فيستولي على ما كسبته ويدعيه لنفسه. دناوهِ: ليس معه في هذه المعركة التي سقط فيها مطعوناً أقرباء يحمونه ويهبون لإنقاذه. ولا يعرف الطالع من اياً عشيره: هناك أناس كثيرون يراهم هذا الجريح لكنه لا يعرف من أي عشيرة هم ولذا فهو في حالة فزع وخوف منهم. العتاوهِ: من العتو والجبروت.

(٣) الوسايق: مفردتها "وسيق" وهو الكسب من الإبل يسوقه الغزاة بعدما اختطفوه. شعْثروه: شتتوه. المشافيق: شديد الحرص والطمع في هذه الإبل المنهوبة. شفاحه: زيادة الحرص والطمع. نطلوا بالعلايق: رموا بعض ملابسهم للتخفف منها استعداداً للمواجهة والقتال. من غير بصر جنبوه الطواريق: من دون دراية ولا خبرة اجتنبوا الطرق المعروفة والمعبدة طلباً للهرب والنجاة بكسبهم.

تفصل ما بينهم وبين أذواد القبائل المعادية التي يتلهفون على نهبها؛ والإبل، في الوقت نفسه، هدفا نموذجيا للذهب حيث يسوقها الغزاة أمامهم مستفيدين من سرعتها وقدرتها على قطع المسافات الطويلة وتحمل الجوع والعطش.

لو لم تكن لهم إبل ولو لم يمارسوا الغزو فإنه يصعب علينا أن نتصور مواضيع أخرى يمكن للبدو أن ينسجوا منها سوافهم وينظموا قصائدهم. إذا ضمك مجلس من مجالس البدو واستمعت إليهم يروون السواف والقصائد عن المغازي وعن الذابح والمذبح "أيام مصافق الغارات" يخيل إليك أن طرق الصحراء ومواردها تعج بالغزاة "تنوس" ما بين مغير، أي في طريقه إلى الغزو، وما بين منكب، أي عائدا من الغزو، ويخيل إليك أنه لا هم لهؤلاء البدو إلا شن الغارات ومباغطة إبل الأعداء في مفايلها والهرب بها في جوف الصحراء بعيدا عن أهاليها الذين حالما يسمعون أصوات الرعاة يندبونهم: ظهورهن ياهل الخيل، عليكم غاره، أبا عركم وخذت، حتى يسارع كل منهم إلى سلاحه وفرسه ويلحق بالمعتدين لاستنقاذ الإبل المنهوبة. حالما يعود الغزاة إلى مضاربهم تبدأ في التبلور والتشكل على ألسنتهم سالفة تحكي مغامرتهم وما حدث لهم وربما تخلل السالفة بعض القصائد التي قيلت لتخليد موقف معين أو حادثة مثيرة وتشيد بقدرة ركائبهم على التحمل وقوة خيلهم وسرعتها وتشيد بالبطولات التي أبداها فريق الغزاة.

من يهم بمرافقة الغزو يحتاج إلى ناقة صلبة قوية مدربة ومذلة وسريعة العدو. ومن هنا جاء اهتمامهم بسلالات الإبل النجبية والعناية بها وترويضها على قطع الفيافي والمفايزات الموحشة. السلالات النجبية سريعة التعلم، سهلة القيادة، لينة الطبع، وإذا ما تألفت مع صاحبها الذي دربها وعسفاها أصبحت مطيعة له وفيه معه فلا تبرك ولا تثور إلا إذا استوى على ظهرها أو عند سماع صوته، ولو ركبها غيره لما انقادت له. تمنن في هذه السالفة التي استقيتها من أحد الرواة:

ظليل ابن شعلان اغار بالصحن على سنجارة معهم محمد ابو عبيد ابن مصبح يوم هجن النياق ما قضب الا الرحول، رحولهن ملحان وتقفتن خيل الرولة، وتقفتن الرولة وهو يركب الرحول يا مير الرحول رحول ملحان متقطعه يا مير معهم الطياحة المعينه ذلول لمحمد وهو يدلي يصيح، والى معه له قصيرة عصملي، وهو يدلي يصيح ويندبهن. يا مير الذلول تغليه مثل روحه. وهي تلحح الذلول قفو البل، هم صاكين به خيل، وهي تلحح، تلحح، تلتقت، ويوم انهم ضيقوا به وهي تطب الى باركه. وهو يجيك يدوهي له: الطياحة يعظام امي. وهي تدلي ترص ثفنته وتعر كبدته على الارض، نخجوه بله قديمي مع فخذة الرولة وخلوه، بيونه تثور وعيت. يوم انه جاه وهو يحول من الملحا وهو يلوح بظهره معه له قصيرة عصملي وهي تطير، وهي تقوع وهو يدلي يكرخهم وهم يخلون الدبش بمواقفه.

يقول بيرترام توماس عن هذه الإبل "دربوها على أن تنهض مسرعة حالما تحس بأدني ملامسة من راكبها لظهرها . . . وطالما أن خيزرانتة مركوزة عند رأسها في الرمل وطالما أنها ترى بندقيته ملقاة على الأرض ستظل باركة بهدوء. ولكن ما أن

ترى يده تلتقط هذه الأشياء حتى تبدأ تتملل استعدادا للنهوض" (Thomas 1932: 286). ومن تطبيع الإبل المعدة للغزو تعويدها على الكر والفر في الغارات وعلى المناورات التي تجنب راكبها الخطر وأن لا تجفل من صوت الرصاص وتتحاشاه بأن تبطح رقبته على الأرض وتعرف متى تقف ومتى تتحرك ومتى تفر ومتى تثبت. وراحلة الغزو متعودة على كتم رغائها حتى لا تلفت انتباه الأعداء إلى طريق راكبها ومكان تعريسه. هذا النوع من الإبل هو الذي يعنيه جروان الطيار في قوله:

دُنِّيت لي هجنٍ هجاهيج عيرات
حيلٍ يبجن الدو ما هن هزيلات
ان صبحن عقب السرى تقل هرفات
بنات هرش للمطارش منيعات
أدبهن المدب وجنك مغيرات
جبنا نياق بالمفالي مقيمات
وضح الوبر ما هن من الوضح بهقات
وسومهن بخشومهن تقل اشارات
ويقول ناصر الفقيدي السبيعي من الجبور واصفا عنايته بذلوله وأنه لم يقتنيها للزينة ولا للقنص وإنما للمغازي والغارات البعيدة مع عقيدهم سالم.

يزيد حالي يامضنة فوادي
ترعى زهر عشب الوسوم الجداد
ولا لطير في ليال الهداد
والشوف دونه مجرهد الحماد
لى اخطاه رمأي ظريف المعادي
ذيب الخايا مقرعات التوادي^(١)
يافاطري لى شفت حالك يزيد
ياطول ما عريتها فى الشديد
ما نيب قانيها لخرج جديد
أبغى الى من ماج عنها العقيد
لي هي تمدرى بي سواة الفريد
مع سالم الحامي عقاب البليد

من خلال الغزو تتجلى العلاقة الوثيقة والاعتماد المتبادل بين البدوي والذلول لدرجة أن محبته لها تطغى على محبته لفتاة أحلامه، كما يقول شليويح:

أمسيت ما للودّ عندي مرسًا
الفاطر اللي كن ريحة عبسًا
حمرا ليا نسيتها بالمنسه
ناوين قطعان عليهم مرسه
ياكود ود الفاطر ام المثاني
ريح الشمطري فوق صافى الثمان
تهذل كما سبع الخلا المهذبان
قطعان بدو حافهن دُعجاني
يمضي البدوي جل عمره معتليا كور مطيته يجوس الفلوات ويدوس الأخطار بحثًا عن الغنيمة وطمعا في الكسب. تصل هذه العلاقة ذروتها حينما يتخيل شليويح

(١) ياما انقصب بالخرج من عقل راعي: إذا اشتد جري الإبل خشوا على عائمهم وعقلهم أن تطير في الهواء وتسقط فيخلعوها ويضعوها في الخروج. بهقات: يصف لون الإبل بأنها وضياء لكنها ليست بهقات، أي ليست شديدة البياض وإنما كدراء كما لو أنها تمرغت بالتراب.

(٢) عريتها فى الشديد: عريتها من الرحل ولم أركبها وقت الربيع بل تركتها ترعى لتختزن في سنامها الشحم والطاقة استعدادا لوقت المغازي. الفريد: الظبي إذا أخطأها الرامي وهربت مسرعة، يصف سرعتها. مقرعات التوادي: الإبل، والتوادي هي الأعواد التي يربط بها ضرعها.

العطاوي نفسه محزوما على كور مطيته لا يبرحه:

يامل قلب عانق الفطر الفريح كنه على كيرانهن مُحزوم
ما اخلف وعدهنه يقَع تخلف الريح والا يشد الضلع ضلع البقوم
أو حينما يتمنى غريب النبطي السبيعي أن يخط قبره على ظهر راحلته:
لي فاطر فح الذراعين عيـره ياليت قبري خط لي في نجيبها
أو حينما يفضل رجا الشمالي الهاجري ملازمة كور المطية على مجالسة
الحسناوات:

حنا بني هاجر خـلان اشـدّتنا ما حن بخلان مدقوقات الالعاس
ويقول هاجري آخر هو ناصر ابن هميله الهاجري:
فثرت جنوبي من ملاوى الشداد من كثر ما نكثر عليه التملمال
بل إن غانم ابن جميعان أقسم لي أنه يغلي ناقته كما يغلي أمه ولما ماتت رثاها
بقصيدة من خمسة عشر بيتا. قال لي غانم:

هذا، طال عمرك، سنة الغبار نزلت مغيرا سنة الغبار الله لا يعيده. حَفَيَاناتِ النِياقِ وتَزَيَّنَتِ
النفود والبل راحت، ذُهَبَتِ كُلُّهُ. وطرشت قصير لي معه ٨٣ ريال فضه، قلت له هات لنا طعام.
يوم جا والى مير ما من صمايل. قال يافلان قحط، والله ان مد العيش انه بانثعشر ريال،
الصاعين، صاعين العيش بانثعشر ريال. ذلول لي طرشت عليه، والله ان ما هي ضعيف، ومثل
غلى امي، مثل غلى أمي، وهملته. ويجين هكالواحد قال: الله واعلم انه هي بله جذع غضاة يم
سود يم هكالديره. متنطحة له غضاية وجاية تبي تثور يامير منتسفه. جان الخبر والى والله
العظيم، عظيم على امته ياولد من لا تاكله النار انه مثل غلى امي، ايبالله البليل. وانظ راس
الطعيس، طعيس خوعا وادلي ابكي، قلت لو كلهن مومتات ولا هي. قلت:

مل قلب بين الاضلاع بادي دلى يجض وعذبن باقتلابه
ولطول ملازمة البدوي لناقته في الحل والترحال وفي المغازي نشأت بين الأثنين
علاقة حميمة وألفة تصل إلى حد أنسنة هذا الكائن والتماهي فيه. يطلق البدوي على
ناقته أسماء مثل البشر ويعرف طبيعتها مثلما يعرف طبائعهم. يخاطبها ويناجيها
مثلما يخاطبهم ويناجيهم. يتكلم باسمها وتتكلم باسمه ليصبح كل منهما صدى
الآخر وصوت ضميره. ومثلما كان الكثير من شعراء البادية في الأزمنة المتأخرة يستهلون
بعبارة "ياصاحبى" أو "خليلى" نجد شعراء البادية في الأزمنة المتأخرة يستهلون
قصائدهم بعبارة "يافاطري". ولقد تحولت الناقاة في عين البطل إلى أنا أخرى alter-ego
يعبر من خلالها عما يعتلج في صدره من هموم وأحزان أو طموحات وآمال
فيخاطبها أو يتكلم بلسانها وهو يريد نفسه وذلك مجازا واتساعا في الكلام. فهذا
عامر ابن جفن العجمي من آل سقران يعبر عن عدم ارتياحه لمكان إقامته على لسان
ذلوله حيث يقول:

لي فاطر قامت جبر التهجرع ومقارف من شوف واره حزين
ومثله قول ابن مسعر العاصمي القحطاني في سالفة سجلتها من الراوي

عبدالله ابن شيحان السبيعي:

هذا، الله يطول لي في عمرك، ابن مسعر القحطاني، من آل عاصم، نزل على الكرك، نزل عليه قصير له، الكرك واحد من السهول، والكرك منزله ما يتعدى هالحظايف من اسفل محرقه لي غيانه، بهالحظايف هذي هالي من صلبوخ الى ملهم، هالضلعان القشير، على حد السهل من الوعر، خد امحق، ما هو زين، القحطاني له فاطر قامت ما غير تحن ومقبلة وجهها هنا تبي الصمان والدهنا، وابلشته الفويطر قامت بس تحن، تبي النصي والحمض والعشب الزين، والعشب الطيب هذا ما يلقي الا بالخد الزين. ما غير ترعى من الشمع، كتاد وما كتاد وشبرم. يوم ابلشته ناقتة بكثر الحنين قام يقصد، يرد عليها:

يا فاطري والله ان قد تشامعين وان تتببعين الكرك وانتي مهانته
في مـا قاع زلب ولا هوب زين والحمض ما ترعينه الا ذنانه
لو كان جـريتي بزوين الحنين انك من اسفل محرقه لي غيانه
وان كان ياشيب القرى تفهمين فان كل حل عـبرته من زمانه
كل عبرته من زمانه يعني كل يعبر حاله ويمشي اموره على حسب قدرته وما يسمح به الوقت.

أكود للخضران باتنجعين ربع لسرفات العشاير مـدانته
الخضران من سبيع، مدانه يعني مظنه. سرفات العشاير هي البل.

لي بكر الوسـمي عليهم بحين نيدانهم خشـر المها بدبقانته
خشـر المها بدبقانته يعني انهم يبعدون النجعة بالفقر، اباعرهم ترعى مع الصيد.

خيـالهم يروي شـبابة السنين ورمـا يهـم كل يعرف رمـيانته
وهذا لافي ابن معلث المطيري في الأبيات التالية يفتخر بنفسه ويمتاز حديثه عن

نفسه بحديثه عن ناقتة:

يقول ابن معلث تمثـل بفاطره دليل كان الليل غابت نجومه
إسـري سلمتي من رواتيم الحصى لي كنهـب الهلبـاج والليل طـايل^(١)
تصبر على مسراي لو هي وحيدة ولا يقطع الفرجه عزوم هزايـل
أنا الى حطيت رجلي بكورها ماني عن الدو الخلاوي مسـايل

ومثلها هذه الأبيات لعبيد ابن زربع الدعجاني العتيبي قالها بعد نهبه لذلول
الهرف ويؤكد أنه سوف ينضيتها مثلما كان يفعل صاحبها الذي نهبها منه. حاول
عبيد ابن زربع أن يقنع جماعته بأن يغزو معه ويكون عقيدا لهم لكنهم فضلوا الذهاب
مع العقداء المتمرسين وتركوه لوحده فقال متحدياً ومفتخراً:

دورت لك يافاطري من يباريك وكل يقـول مع الجماعه نروح
حلفت انا يافاطر الهرف لارذيك أرذيك لو انك عليـه لروح
واصير لك كود كما فعل راعيك ما هو كلام ياذلولي مزوح
والله لي توحين المدوه باذانيك ليا قام يندب كل شقحا طفوح
والله لاركز لك عباتي واخليك واضوي ولو صكت علي النبوح^(٢)
والله لاجيب السررق لين اني آتيك والعقل وانتي ياذلولي سمـوح

(١) كنهـب: تقاعس وتلكأ. الهلبـاج: الخسيس، الدنيء.

(٢) عليـه لروح: لأنها لم تألفه بعد الهرف، صاحبها الأول. المدوه: رعاة الإبل التي ينوي نهبها. أركز لك عباتي واخليك: لأنه سيغزو لوحده دون أن يكون معه رفيقاً يجلس قعدة مع ناقتة.

وشبيهه بذلك أبيات لزيد ابن غيام المطيري من الجبلان من علوى يقول فيها:
يافاطري يوم البدو قوم لبدان ترى السعد قدام مير اتبعيني
أما نُسند بك على جو عرفان والا نتحدر بك على الكمعتين
من عقب ما حنا من العام ظفران خرب معرفتنا علينا الحصيني
تكون الناقة في بداية الغزو مكتنزة شحما ومشحونة طاقة لا يستطيع راكبها كبح
جماعها حتى لتكاد تحطم كورها، وهي لفرط نشاطها يذعرها ظلها وتجفل من
جلالها ومن حبال الكور. لكنها في نهاية الرحلة تؤول إلى شبح هزيل، إلى هيكل
عظمي يغطيه الجلد. يذهب شحمها ويتلاشى سنامها ويترك الرحل والأنساع قروحا
وندوبا على ظهرها وأثارا واضحة على دفتيها. انضاء الراحلة الصلبة القوية في
قطع القفار الموحشة والمفازات الشاسعة ليس إلا تعبيراً عن مدى الإصرار والجسارة
وقوة العزيمة وعلو الهمة. وهكذا تتماهى الناقة في شخصية البطل، كما لو أن البطل
نفسه استهلك طاقة الناقة واستنفذ حيويتها واستلب نشاطها ليضيف ذلك كله إلى
رصيده البطولي. فالبطل حينما يفتخر بناقته إنما هو في واقع الأمر يفتخر بنفسه
ويعلي من شأن ذاته. فهذا مترك ابن بادي ابن وديكان ابن قويد الدوسري (الملقب
شيبان) يؤكد على أن ركوب الهجن في الغزو هو من شأن الرجال الطيبين
والشجعان الذين يركبون الأخطار وليست من شأن الرجال الخاملين الذين لا هم إلا
التجارة والأعمال المريحة:

الهنج ما هيب لك يالبايع الشاري تهيا لغمر ينوس الحف ويجيبه^(١)
يازين داهومهن عافيهن الذاري مع تختخ خالي جر العوى ذيبه
كم وردت منزل عقب العرب صاري عفو جنبه ويباس مغاريبه
كم ليلة بت انا باكوارهن ساري لى عود اللاش ينظر حرمة صحيبه
غرنا على الببل تشرع جدول جاري يوم على القوم كل ياخذ مصيبه
يوم اشتبكننا وكل بالغضب زاري متقاسمين شرار من مشاهيبه
رحنا بزيدانهم وسويق نثاري عاداتنا لى خذينا الطرش نقفي به
لى صار ما للفتى فعل به يماري ما ينفعه فعل غيره لا يماري به
ولما أراد جهز ابن شرار أن يفتخر بأفعاله استشهد بالهجن، وهذا إقرار منه
بدورها في منحه الفرصة وتهيئة الأسباب له ليثبت شجاعته وبطولته، فلولاها لما
استطاع أن يحقق طموحاته ولا أن يعمل شيئاً بمفرده:

ياحازبات الهجن لا تجحدن خوفن من الله يابعيدات الاكوان
ها عدن اللي فوقكن صار مني يوم ان غاشيكن من الملح دخان
ياما حوينا الفود قدامكن والا تعاطينا اللوازم بضمان
ياطول ما نسهر على اكواركن ونصير من دون المتلين نيشان
يوم العمار الغاليه يرخصن ينخاني اللي من هل الجيش شفقان

(١) الغمر: الفتى الشجاع. الحف: العدو الذي تقع دبرته على الحدود، تحف ديرة الشاعر.

ومثلما تشكل الإبل موضوعا شعريا كأداة للغزو وكوسيلة لنهب أذواد القبائل الأخرى فهي أيضا تشكل موضوعا شعريا كهدف للغزو معرضة للنهب من قبل الغزاة، ولذا ينبغي الاستماتة في الدفاع عنها. وهنا لا يتحدث الشاعر عنها كمطايا وهجن بل كأذواد ضروعها مليئة بالحليب تتلوها حيرانها وهي منتشرة في المرعى. وأوصاف هذه الخلفات والمتالي تختلف كلية عن أوصاف الهجن، فهي نوع مختلف من الإبل لها منافع أخرى تتمثل في حليبها ولحمها الذي يقتاتون عليه ويقدمونه لضيوفهم بسخاء. ومن القصائد المشهورة في هذا الباب قصيدة ابن سعيان القحطاني من آل سعد من قحطان الجنوب. ذهب هو وأخوه وأخذوا إبلهم إلى المرعى ولما وردوا على الماء أغار عليهم قوم طامعون بها لكنهم استنقذوها منهم فقال ابن سعيان يصف المعركة.

ودموع عيني غرقت هدبانها
وقادت صلاة العصر من معطانها
يوم انتحت ما درهمت حشوانها
من فوق قبا واقف بعنانها
بل صدير واقضبوا رعيانها
وضيعت انا من بندقي صوانها
بجنبية لي وسعت كينانها
والتاسعة طاحت خذيت عنانها
هو مع يسار البل وانا بايمانها
خلاف العضود وتو سير بطانها
صم الحوافر سودسوا حذيانها
والشيخ الآخر طايح بوزانها
وسط المعوثة ضيعت حيرانها
حليبا يصفق على سيقانها
اللي تبشّر بالشيب ضيفانها
كبيرة الجمهارة بين آذانها
رديفها ما مل من حجبانها
وتنشّد الطرشان عن خلانها
البل لها شان وانا من شانها
يوم العذارا نسفت غطيانها
بين العذارا يعجبه دهانها
قحطان لي منة رقص شيطانها
كم من هنوف يتّموا ورعانها^(١)

عند الضحى عدت في مبرية
وردت انا بالبل قليب عيلم
وقادت مع الخل الشمالي منها
واثاري سبر القوم يشيح فينا
عود على ربعه يبشّرهم بنا
خيل بليل جاتنا عند ابلنا
ونطحت انا الاول وخبوي عندها
جانا ثمان فوقها ثمانيه
نعم باخويه يوم جوا عدواننا
هوه عقر له سابق مرشوشه
وانا عقرت اللي كبير راسها
وعقرت صفرا ما يوصف مثلها
كله لعينا اللي تجر حنينها
وكله لعينا اللي بهول شقها
وكله لعينا الفاظر ام شماله
وكله لعينا الحايل اخت ام الفحل
وكله لعينا البكرة العمليه
وكله لعينا اللي دقيق حسها
وانا عبيد البل وانا عبدها
البل لي جا العيد عيدي عندها
ما ني براعي جمّة مدهونه
وانا احمد الله لابتي مشهوره
وانا احمد الله يوم انا من لابه

(١) مبرية: قمة الجبل المستدقة. قادت: اتجهت من المرعى إلى الماء. صوان: الحجر الذي يقذف النار لإشعال فتيل البارود. خوي: سقط. كينانها: إصاباتاها. وسعت كينانها: أحدثت إصاباتا بليغة. تو سير بطانها: عند سير

وانا برجوى الله يغفر ذنوبي
ومثلها قصيدة سالم ابن فهيد الحايك
الى قربوا من حفرتي زربانها
الى نصبح والمطر هممال
يملى الملازم كلهما وهجال
وياطول ما هي بالجفا وهزال
وسم جديد وجاه ولي تالي
متخالف كنه فحوح زوالي
تلبس جديد قد رمت لسمال
ما شافت الشاوي ولا عمال
وعنقودها مثل الدلي ميال
عطيفها يلحق على الاوشال
والكل منهن يحتري لبهال
من اللبن وامه يجيها جفال
تملا القدح لول وتملى التالي
تنحى من الما من فروع الجال
معسكر مع الهوى ينجال
ما عاد يسقط للمشرب نهال
ياتيه مع البل خفة وهبال
يازين من فوق الكتوف حبال
وتردع كما اللي يردع الهيال
وان دبرت كنه جثي دلال
في ربعة فييها ذرا وظلال
والكل منهم ينطح العيال
ما تفرق الرجلي من الخيال
هذا يطيح وذاك دمسه سمال
وكم من عقيد جا شداده خالي
هو ماما درى انه زاله الزوال
ما عاد الاول ينثني للتالي
عقب الطمع فييها بدى له حال
وتعدله مثل الصعب عدال
بمخيرات ضربها فى العالي
بالراس والا مقدم الرججال

بطانها. سودسوا حذيانها: أتقنوا تلبسها الحذاء وتثبته بستة مسامير. المعوثة: المعتك. بهول شقها: غزيرة
إدرار الحليب. تبشر بالشبيب ضيفانها: إذا وقد عليهم الضيوف حلبوها لهم، ودائما يجدون فيها ما يكفي من
الحليب لضيوفهم. البكرة العملية: البكرة المذلة للركوب. حجانها: وروكها، أي أن راكبيها لا يمل من ركوبها
لأدبها وحسن طبعها. اللي دقيق حسها: كناية عن النساء لنعومة أصواتها. يتموا ورعناها: يتموا أطفالها بقتل
آبائهم.

حفيفنا ما حن بنصخيها له
هذي حلايبنا ولا نصخي بها
وحوارها يذبح على ماجوبه
والا رفيق مبطي ما جانا
وريثة لجدودنا قدامنا
وليا عقلنا طوعها وصعيبها
والى مشت ما ردها عن نوها
جهالها ما هي تطيع كبارها
كن الجنايذ توها وخلافها
من قرب منها شالته بدماعه
ولد عجوز ولا لابيه غيره
الله مقدرنا على عدونا
تاتي له الضبعه وتاخذ راسه
تشبع باثرنا دايم وتروده
واستانست من كثر ما هي شافت
تم الفرخ يوم امتلى مدحاله
جمع لحاله ما يكافي جمعنا

جعلهُ فُداً لآبكارها الاجهال
يوم الردي عنده لبنها غالي
للمنكف اللي قد زهابه خالي
من بعُد داره جانا لنا نزال
وياما خسرنا دونها من غالي
نُقَلَطُ جموع تعجز العكال
ضو توقد في هبوب شمال
لى ما غشى دخانها الاقذال
نُصالِ تدري من علو جبال
وحسبي على من يذبح المستالي
كبير سن ولا عليه عيال
واللي مقدرنا عليه الوالي
وتروح بالباقى الى المدحال
بين الجنايذ مشيها هوذال^(١)
شافت ارزاق ما لها كيال
ما تاكل الا سابق ورجال
وان شب في جمعه وقود شعال

من حاييف إلى عقيد: شليويح العطاوي نموذجاً

مما يساعد على تخليد سيرة البطل كونه هو شاعر ينظم سيرة حياته ومغامراته على شكل مقطعات شعرية. هكذا شاع صيت شليويح العطاوي واخيه بخيت ابني ماعز من المهادلة من ذوي عطية من عتيبة، من الروقة جماعة ابن ربيعان. لا نطمح في هذه العجالة أن نستقصي شعر شليويح ولا أن نأتي على كل ما هو معروف عن حياته، فقد كفانا هذه المهمة الزميل مارسيل كوربرسهوك في كتاب له عن حياة شليويح وأخيه بخيت وشعرهما معتمدا على رواية من قبيلة عتيبة، خصوصا حفيده خالد ابن مشعان ابن فاجر ابن شليويح العطاوي، أمير مركز عبلا (Kurpershoek) 1995.

(١) هجال: خباري. ولي تالي: مطر يلي مطر سابق. فحوح زوالي: نقش السجاد. فرعت: تساقط منها الوبر. مرجوعه: ممطورة. ما شافت الشاوي ولا عمال: تتوغل بعيدا في قلب الصحراء بعيدا عن رعاة الغنم وعمال الزكاة. الاوشال: ما تبقى في الضرع من حليب من الحلبة الأولى. العطيف: تجمع الدر في الضرع مرة أخرى للحلبة الثانية التي بعد الأولى. تفحط: تتأوه لكثرة ما في ضرعها من الحليب. لبهال: الإبهال، أي إزالة الشملة عن ضرعها عند الإدرار. راعيهما يقرقع حوضه: يحدث صوتا بالضرب على الحوض بالعصا ليرد الإبل الواردة عن التدافع. فوق الكتوف حبال: حبال الشملة. ترخي الشقاق: ترخي جنبها لتمنع بقية الإبل من التزاحم على جال البئر ودفع السقاة في قاع البئر. العيال: المعتدون بغير حق. نعدله: نعسفه، نذله ونثنيه عن ما يريد منا. حفيفنا: عدونا الذي تقع ديرته على حدود ديرتنا. العكال: من يحاول رد الجموع وقهرها. عن نوها: عن غايتها ومقصدها. ضو توقد: نار الحرب. توها وخلافها: قريبا منها وبعيدا عنها. نصال: صخور كبيرة. يذبح المستالي: يذبح المستسلم بغير حق. المدحال: جحر الضبعة. هوذال: سريع.

يعرف محمد العلي العبيد في مخطوطته النجم اللامع شليويح بأنه "الفارس المشهور ومن بعده أولاده ضيف الله وفارع وفاجر وكانوا كلهم فرسان اما شليويح فقد فاق في الشجاعة وفي الصيت ابناء عصره فكان فارسا شجاعا شاعرا وكان له اخ اسمه بخيت وهم ابناء رجل يسمى ماغز ليس له زعامة مطلقا وكان بخيت شجاعا شاعرا يضاهي شجاعة اخوه شليويح ولكن الحظ في المغازي استأثر فيه شليويح عن اخيه بخيت" (عبيد: ٢٨٦). استطاع الأخوان، خصوصا شليويح، أن يحتلا بعصاميتهما وفعل أيديهما مكانة بارزة في عالم الفروسية والشعر. كان أباهما يلقب بوبح، وفي هذا اللقب ما فيه من الازدراء والتحقير، ولم يكن لهذه الحمولة ذكر قبل مجيء شليويح وبخيت. وكعادة البدو في تفسير مثل هذه الأمور، يقولون إن سر تفوق الإثنين يعود إلى الخوولة لأن أمهم بنت الضيطة، والضيطة أمراء العضيان من الروقه. تحول شليويح ولد بوبح من حنشولي إلى بطل شعبي يتحدى سلطة الشيخ مسلط ابن ربيعان في كون طلال. يقول ابن عبيد بعد أن فصل القول في موقعة طلال وكيف تمكنت عتيبة من هزيمة الخصم:

فبعد الهزيمة أخذوا يمنعون الرجال من القتل ويغنمون الاموال وهذه عوائد البدو لا يتحصلون على الاطماع الا بالمنع ولو رأى عدوه انه يقتل ولا يمنع فانه لا يستسلم حتى يقتل وكان زعيمهم مسلط (بن ربيعان) قد ناداهم برفع المنع قبل اشتباك الوقعه وان من منع منهم فانه سيسهج وجهه ويقتل منيعه الذي هو منع فكان لا مناص من المنع فمنع منهم رجال فاستخف بهم مصلط فقتل منعاهم جريا على ما نبههم به بالامس وكان شليويح قد منع سبعين رجلا بوجهه وانزلهم بيته وبيوت اولاده وعمل لهم طعام واكلوا وشربوا فدعا بهم مصلط ليقتلهم كما قتل من قبلهم فامتنع اشليويح تسليمهم له ودافع عنهم هو وقبيلته ودافع عنهم شليويح اشد المدافعه واستشفع بزعماء الروقه على مصلط فلم يشفعهم ثم ان شليويح جمع الامراء ثانية وقال لهم بلسان فصيح امضوا الى الامير مصلط وبلغوه اني سأقف دون قتل منعاي وقطع وجهي والله ما تتحدث عتيبة ان منعاي قتلوا وقطع وجهي بعد ما امنتهم ونزلوا بيتي واكلوا طعامي فلن اسلمهم ولو تلفت نفسي فاني افضل ان اموت قبل ان اراهم يقتلون وفي عزم شليويح انه اذا صمم مصلط على قتلهم فان شليويح سيمضي عليه ويقتله قبل ان يصل مصلط الى اضياف بيته فيقتلهم ثم اسر شليويح الى بعض مشايخ الروقه بانه سيفعل ما ذكره لهم فاندفعوا على مصلط يترجمونه في العفو عنهم اكراما لشليويح وقالوا له ان مراكيض ابو ضيف الله ما تنسى حينما يكر على عدوه فاكثرنا عليه من طلب العفو عنهم فلم يسمح بذلك وابى الا ان يرد شفاعتهم فقام رجل منهم يدعى مدوخ بن تنيبيك من شيوخ المرشدة فقام مستعجلا يتخطى رقاب الرجال حتى برك أمام مصلط كما يبرك البعير فأخذ بتلابيبه وبمجامع ثوبه حتى تمكن منهم فجذبه جذبة وقال له (عف عن منعاء شليويح لرحم ابوك) وهذه الكلمة عند البدو يعدونها آخر سهم بالكنايه فمن هذه الكلمة القاسيه عرف مصلط ان الامر بلغ مع شليويح آخر حد وان عناده سيحدث فتنة تقوم بين القبيلتين وكل من الزعيمين له اتباع ينصرونه فبعناده تفترق كلمتهم وتنشطر القبيله قبيلتين فتأتي بينهم كما أتة بين عبس وذبيان فقال مصلط فكوني بروقه تراني عفتي وبذلك انتهت المعركة وانحسم النزاع (عبيد: ٢٩١-٢).

يمثل شليويح، ويعتزي بأخته سكرًا "انا اخو سكرًا"، نموذجًا للحنشولي الذي يبدأ الصعود من القاع ولا يتوقف إلا في القمة. ويروي حفيده خالد كيف بدأ شليويح صعوده نحو القمة مؤكدًا على دور الحظ في ذلك. ففي هذه الرواية يتغلب حظ شليويح وسعد طالعه على نحس داعول الذي كان الجميع يتحاشون الغزو معه هربًا من النحس الذي كان يلازمه:

شليويح عندما طلع ابو ثلاثطعش سنه كان فيه إحساس المرجله والغيره والطموح والنظر البعيد. كان والده نازل في وادى البريك، البريك جنوب عفيف. وهوه اتجّه على رجوله من محل والده شمال عفيف. عندما قطع له مسافه وصل ضلع النجج، ضلع النجج معروف، ضلع في ديرة حرب. طلع في ضلع النجج عقب صلاة العصر والى هو يشوف البل معشيه تحته، تحت الضلع. البل شاف عندها رجال وحرمه وهو ولد صغير ما له نطحه في الرجال ولكن بيبي يحاول عاد الطريقة اللي هو ينجح فيها. مسك محله جالس حتى أغربت الشمس وامرحت البل. نزل عليها بعد ما ظلم الليل. عندما طب ووسط البل وجد له رجال راقد متسلقي على ظهره وجنبه، عنه شوي، حرمه نايمه. الرجال طبعًا ما له فيه نطحه. في مثناته قديمي، سحب القديمي والى الرجال متسلقي واضرب ابها على نُغْبَة النحر والى الرجال ميّت. يوم رفع عن وجهه لى هو عبد. الحرمه قامت وصاحت، قال: اسكتي ياحرمه ولا جايك شي أبد وقومي شيلي مسامتك على بعيرك وصملاينه. قامت الحرمه وشالت المسامه وشالت الصملاين على البعير. ودكّ البل وسرى بها الليل كله والنهار كله حتى جا بعد الظهر. نادى الحرمه بعد الظهر قال: تعرفين اهلك، محل اهلك؟ قالت: لا والله، ما اعرفهم. قال: ارجعي على بعيرك بصملاينه ومسامته وامسكي جرّة البل لين توديك اهلك. رجعت الحرمه وهو جاي يسوق البل، نهاره كله وليله كله والليل الثاني كله الين الفجر. يوم جا الفجر، يعني آخر الليل، قريب الفجر، وهو يهجدها ابوه ماعز في وادى البريك جنوب عفيف. البل جفّلت يوم شافت البيت وتربّقت بالبيت وطاح البيت، بيت ماعز. تربّقت نشبت أطناب البيت في رجول البل وفي ايدينها وطاح البيت. طلع ماعز يصيح: واهجادي هجاده، هذا وشو هاللي هجّديني؟ قال: يابوي أنا ولدك شليويح جبت لك البل، قم مرّحها. قال: ياجعلها ما تجيني فيك. وهو يمرّح البل.

البل فيها ذلول متحيله، ذلول اصيل. يوم رددت العلوم والى هي اباعر الهرف الحربي من عوف، من قبيلة عوف من حرب. والذلول ذلول الهرف مفوه عند القبائل. بعد ذلك تليّموا الروقه سلفان واجد وقطنوا الحنايج على سلطان ابن ربيعان واخوه مصلط. قال سلطان، هو الكبير: ياقوم ردوا، كل يرد نبي نغزي. ردوا الروقه، اللي رد له فرس واللي رد له ذلول، واللي رد له . . . ردوا كلهم. شليويح رد ذلول الهرف، نيته ما هوب غازي مع ابن ربيعان. رد ذلول الهرف. يوم قاموا القوم يشيلون على جيشهم وهو يقوم ينادي فيهم: خاووني، خاوني يافلان، ارواحك معي يافلان! والكل منهم يجاوب يقول: ابروح مع الجماعه، ابروح مع الجماعه. كل بيبي يروح مع ابن ربيعان ومعه قوم واجد. يعني استحقار لشليويح علشان صغر سنّه، ورع صغير ولا بان له فعول الا اباعر الهرف يوم جابها. شد الشداد على ذلول الهرف. ابن ربيعان ثور في جهه بالقوم كلهم وهو ثور في جهة اخرى. وتمثل يقول:

حلفت انا يافاطر الهرف لارديك	علم ما هوب علوم هرج المزوح
أزريت لا القى لك خسوي يباريك	كل يقول مع الجماعه نروح
يازين مع خطو السليله تمديك	تمدري اللي عند ابوها طمّوح
والله لى توحين المدوه باذانيك	لى قام ينده كل وضحا طفوح

واني لاخلني لك عباتي تجاريك واضوي ولو صكت علي النبوح^(١) غزى ويوم انكف وليا هو كاسب له كسب واجد، هو لحاله. بعدما جا التفتت فيه انظار القوم، اللي من ادنى القبيله واللي من اقصى القبيله وتبعوه. وغزى في طريقه على قحطان، مغزى ثاني وراح معه قوم واجد وصبه الله على اباعر المدلى في علاوى الصرايح، أودية تهد من ورا التيس. صبه الله على اباعر المدلى، قطيعين، العفر والمجاهيم. عاد هو في مغزاه على اباعر المدلى غزى معه قوم واجد واعترضه رجال يسمى داعول الحافي. قالوا القوم كلهم من فم واحد: ياشليويح اختر فينا وفي داعول، ما يروح معنا داعول. قال: وش فيه داعول؟ قالوا: داعول مكوشع، القوم اللي يروح معهم يذبون. قال: هذا شرك والشرك ما له في قلبي محل، هذا شرك وداعول ما يرجع لو ترجعون كلكم. رجعوا ثلاثة ارباع القوم على شان داعول، لان داعول القوم اللي يروح معهم ما يرجعون. وارجع ثلاثة ارباعهم. قال: امش ياداعول. راح وخذ اباعر المدلى القطيعين، المغاتير والمجاهيم وجابها. وليا القوم قامحة اللي عودوا. يوم جابها في القاع المسمى قاع الحراميه، قاع الحراميه شرق عفيف، بير اسمه الحراميه، قاع الحرامي. يوم جابها في قاع الحراميه وهو يوقفها الضحي وهو يقسمها وهو يزح لداعول منها ستة عشر مت، ستة عشر ناقة. وداعول فقير ما يلقي ما يذوق. قال: خذها ياداعول نقت بها عيالك. بطريقهم للمغزى تمثل عاد أبيات ما قضينا منها الا قاف، قال:

ياالمشركه ما يقطع الرزق داعول ما ينقطع رزق الله اللي نوى به اباعر المدلى المجاهيم قسمها على قومه والعفر اخذها عزل له. يوم جا على راس الحول وهو قاطن على عد الغنمه، الغنمه في وادي الجريز غرب شمال عفيف، يوم جا على الحول وليا راعي الذلول جاي يسوق لين نوح عقب صلاة العصر عند نحر بيت شليويح. ضيفه شليويح وبات عنده، ما تعلمه ولا اخذ منه. يوم اصبح قال: ياشليويح انا ضفتك البارح واكرمتني ولا قصرت ولا اخذت علمي. قال: الله يحييك على البطا والا على السرعة. قال: انا قاسي المدلى القحطاني راعي البل المعطنه هذي المغاتير. قال: الله يحييك يالمدلى من حين سرت لان جيت واللزوم اللي جيت ابها ابشر بها واباعرك قم استقتها من تاليها من المعطان. قال: انا ما جيت ادور اباعري ياولد ماعز، اباعري اخذتها على وضع النقا، أسلاف بيننا وبينكم، تاخذونها منا ونرده علاكم، ولا جيت ادور اباعري، انا جيت للزوم بسيط اباك تتمها لي. قال له: تم. قال: انا جيت للباكور اللي على رقابها، الباكور انك تخليه على ارقابها شاهد لك دايم. قال: وتم. ومن هاك اليوم، من حين اخذ اباعر المدلى لهذا التاريخ وهو وسم ذوي شليويح، الباكور بين المطرقين العطاوي على مدق الرقبه من يسار. وسمي انا هالحين اسمها على اباعري، الله الله: (Kurpershoek 1995: 142-58).

هذه الرواية تؤكد لنا أن النجاح والسمعة وتأسيس قاعدة متينة للانطلاق نحو تحقيق الشهرة أمور تحتاج إلى إصرار وعزيمة وثقة في النفس. ففي البداية لم يبد قوم شليويح استعدادا لمرافقته كعقيد لهم في الغزو لأنه لم يثبت بعد كفاءته وفضلوا الذهاب مع سلطان ابن ربيعان. كما نلاحظ في هذه الرواية جزئيتين تتكرر كثيرا في الروايات المتعلقة ببروز الرجل العصامي وتثبت أهليته ليصعد من القاع ويحتل مركز العقاده. أحد هاتين الجزئيتين سبق أن تطرقنا له وهي أن يتوفر له فائض من

(١) أغلب الروايات تؤكد بأن عبيد ابن زريع الدعجاني العتيبي هو الذي سرق ناقة الهرف.. وسبق أن أوردنا هذه الأبيات منسوبة لعبيد ابن زريع الدعجاني العتيبي

رصيد الحظ يكفي لإقالة الحظ العاشر لأي رفيق مشؤوم قد يصاحبه في غزواته. أما الجزئية الثانية فهي أن يغزو العقيد في بداية نشأته غزوة مظفرة تلفت له الأنظار ويكسب فيها غنيمة عظيمة من الإبل يبقى على وسمها كرمز يخلد ذكرى ذلك الإنجاز المبهر ويؤسس من خلال ذلك الوسم المختلف عن وسم قبيلته مركز قوة جديد وربما فرع قبلي جديد. يقول الطرقي ابن عصمان ابن لعيبان ابن رافع المايق عن جده المايق الذي أسس شيخة الميَّاق بقبيلة الجرذان:

الغفيلة قبل كل وسمهم الباب، كل غفيلي. والمايق جاب اباعر المنتفق عليه الشبيبي، الحلقه، وصارت وسمنا بالجرذان، الحلقه على الخد الايمن، حلقه له عريجة تصير حدر وخطام على الخشم. وسم الميَّاق الحلقه على الصابر الايمن شاهدا القرم على الخشم، يقرمون قرمه صغيره على الخشم. وغزى ابن فروان وجاب اباعر حرب عليه البرثن على الخد من يمين، وخلاه على برثنه، هلال مكفي بوسطه خط على الخد من يسار، مثل البرثن، برثن الطير، له ثلاث سنون وفتحته من يم راس البعير. وسم الحبكان البرثن على الصابر الايسر قفاوه ثلاث مطارق. وسم المعاكله باب على حنوة الرقبه من يمين وجهه تحت، مكفي كفي، ومطرق تحت الماذق، بين السامع والدامع، مضرب العصا الى صرت راكب المطيه قفو الاذن وقدام مغلط الرقبه. وسم الهجلي والضويله قرم على الخشم. وسم اللواحق الزناد على الصابر الايمن، سنغ باب. المختار والزيبيل وسومهم وسوم غنم.

ويقول حسين ابن علي الحذب:

الروسان وسمهم الخناق على مذبح الناقه إلا الخشيم جماعة حمود الرويسي وسمهم الأفيعا S على الرقبه. الأفيعا جابه مسيب الحذب ولد مهوس، أخو جدنا موزم، جابه من الهوينه من الظفير واعطى عزله حمود الرويسي جزى له، لأن الرويسي جا من الحسا فزاع للحذب يوم يتشازر هو وابن صخيل. غزى مسيب على الظفير معه الخشيم حول اربعين مردوفه. وياخذ دبش من الظفير. يوم حذى الدبش، قال: ياحمود الرويسي اليوم انا معطيك العقبه، العقبه عزل العقيد، القوم تاخذ على ثنتين وثلاث والعقيد ياخذ كل اللي يفد، لو هو انشا الله ميه أو ميتين ناقه. قال الرويسي: اريد هالوضحا وما تبعه. والى الوضحا حول ثلاثين أو خمس وثلاثين ناقه كلهن مغاتير، نياق الهوينه من الظفير. الى مير وسمهن الافيعا وهم قبل وسمهم الخناق. قال: والله ما اني مطرحهن أريدهن على وسم الهوينه. وينفردون الروسان على وسم الهوينه.

ويقدم شليويح في شعره منهجا للصعلكة ويعتصر من ممارساته في التلصص مواضع شعرية طرية ومثيرة تصدر عن رؤية عميقة وحس جمالي مذهل. ومن قصائده التي تغنت بها الصحراء هذه الأبيات التي يعرف بها نفسه ويرسم فيها صورة نموذجية لحياة الحنشولي. يقول شليويح إنه من كثر ملازمته لركوب الهجن أصبح كأنه مشدود إلى أكوارها بحبل "محزوم":

يامل قلب عانق الفطر الفيح	كته على كيرانهن محزوم
ما اخلف وعدهته يقع تخلف الريح	والا يشد الضلع ضلع البقوم
ياناشد عتي تراني شليويح	قلبي على قطع الخرايم عزوم
إن قلت الوزن خذوها المشافيح	أخلي الوزنه لربعي واشوم
والى رزقنا الله بذود المصاليح	يصير قسمي من خيار القسوم

واضوي ولو صكت عليّ النوايح
ان كان لحقوا مبعدين المصابيح
إلى ضربت السابق ام اللوايح
يقول في البيت الأخير أنه إذا صوب الضربة للجواد التي تزين سرجها ورسنها
"اللوايح" جميلة النسج زاهية الألوان التي اعتاد البدوي أن يزين بها فرسه، فإن
صاحب تلك الفرس يرفع يديه مستسلما طالبا من شليويح أن يعف عنه. وفي
المقطوعة التالية يختزل لنا شليويح عملية الغزو منذ أن يعقد العقيد النية على الغزو
ويعلن ذلك لقومه "ينب عليهم" حتى يؤوبون من غزوتهم منتصرين ويتقاسمون الغنيمة
والكل منهم متبجح بمشرفات الاذاني، أي مغتبط بحصته من الإبل الكثيرة لأنه غزى مع
عقيد مظفر وميمون النقيبة:

ياهل الركايب علّقوا فوقهن زاد
ياما لهن من غب الاثنين ميعاد
عسى الرجا ينقاد والعمر ما باد
أشرف رقيبتهن على راس مسناد
وانا دليلتهم وسببر لاولاد
طالعت عفر في مساريح الابعاد
غاروا هل العيرات والخيل تنقاد
طارت عمايمنا وطارن الاجعاد
والصبح عزّل كسبنا كل فواد

لاحظ قوله "قلت ابشروا ياشاربين الوزان في البيت الخامس من هذه القصيدة وما
يشبه ذلك في البيت الرابع من القصيدة التي قبلها. في الطريق كثيرا ما ينفد ماء
الغزاة أو يشح عليهم مما يضطرهم إلى أن يتقاسموا ما يتبقى منه بالتساوي وعلى
مقادير قليلة تكفي فقط لبل الريق. وطريقة القسمة أن يضعوا في قاع إناء الشرب
حصية صغيرة ثم يصبون من مائهم ما يكفي فقط ليغطي الحصية. ودون منديل
الفهيد في أحد دواوينه ما يلي:

هذي قصة قديمة جرت على ذاعر بن خشمان من أمراء الوهوب من حرب وهو شجاع
وعقيد غزوات تبين لنا صبرهم ومناعتهم على طول الضما والتعب والسهر. المذكور
باحدى غزواته قضى ما هم وفي العادة إذا بقى شيء قليل من الماء يذخرونه مع واحد

(١) اضوي: أتسلل خفية في ظلام الليل. صكت عليّ النبوح: حتى ولو أحاطت بي كلاب القطين، كناية عن الخفة
والمهارة ورباطة الجأش واللامبالاة بالخطر. واللي قعد عند الركاب مخدوم: صاحبه الذي يتركه خلفه ليحرس
ركابهم سوف يحصل على نصيبه من الغنيمة. الحاضر: السلاح الناري سريع الطلقات. سواة الغيوم: دخان
البواريد شبهه بالسحب.

(٢) الفيه: الظل. المسنحان: الخامل الكسول الذي لا يفي بالتزاماته ويتهرب من واجباته. الوزان: كان الغزاة إذا شح
عليهم الماء تقاسموا ما يتبقى منه بالتساوي وعلى مقادير قليلة تسمى الوزنه تكفي فقط لبل الريق. كاني: كامي،
لن أخفي عليكم ما رأيته. إنكافة القناص: وقت عودته قبيل ظلام الليل. متبجح: جذل مسرور. مشرفات الاذاني:
الإبل.

منهم امين ويتقاسمونه بالوزنه مثل ما ذكر شليويح العطاوي بقياس وهم يأخذون على يومين بلياليهن عن الماء والطعام وعندما بدأوا يقسمون باقي ما هم عياً يأخذ الا هو التالي بدى ربه على نفسه ثم عاف حقه وعرضه عليهم على واحد واحد وهو ضميان قصده يوربهم الجلد ويعرفهم على الصبر وكلهم عافوه بيونه له وأخير دُفِّقهُ بالأرض هذا من نوع الصبر فيهم والمناعة (فهيد ١٩٩٢/ب : ١٩٦).

وتقاسم الماء القليل بهذه الطريقة عادة جاهلية قديمة، وجاء في أمثال العرب للمفضل الضبي:

زعموا أن كعب بن مامة الإيادي خرج في ركب من إياد بن نزار وربيعة بن نزار حتى إذا كانوا بالدهناء في حمارة القيض عطشوا ومعهم شيء من ماء قليل إنما يشربونه بالحصى فيقتسمونه، فشرب كل إنسان منهم بقدر تلك الحصاة، فشرب القوم حصتهم، فلما أخذ كعب الإناء ليشرب نظر إليه شمر بن مالك النمري، فلما رآه كعب ينظر إليه ظن أنه عطشان، فقال: اسق أخاك النمري يسطبح، فذهبت مثلاً (ضبي ١٩٨١: ١٣٨).

يقول جرير:

نقيسُ بقيات النطاف على الحصى وهن على طي الحيازيم جُتج
ويقول فيصل الجميلي في رثاء أخيه هجرس:

كنه ما بدى بجزواه غييره وبات ظميينان مع الناس نايم
وفي المقطوعة التالية يرسم لنا شليويح مشهداً لطلما حدث له مراراً وتكراراً بعد أن ينهب الإبل ويتعقبه أهلها محاولين افتكاكها منه:

ياما درقناها على شبة النار يوم الحرس من دونها ما يبات
ناخذ خزائنا مشاعيف الابكار حم الذرا وظهورها نايفات
لحقوا طلبها فوق شحصات الامهار مستجنبين كالحني مرهفات
قالوا عدايلنا وقلنا على يسار هذي طلايق عاشقين البنات
وياما حلى حس المنومل ليا ثار واقفن بالدم الحمر معذرات^(١)
ويقول شليويح من قصيدة يعتذر فيها لفتاة جميلة اعترضت طريقه وأرادت محادثته ورؤيته لأنها تسمع عنه الكثير. وتقول الحكاية أن تلك الفتاة من شدة حرصها على رؤية شليويح وعدت بأن تهب من يريها إياه واحدة من الإبل مكافأة له. لكنها لما رآته تعجبت من شحوبه وسواد وجهه فاعتذرت لها مبينا أنه منصرف عن حياة الترف وملذات الدنيا الرخيصة ومغرياتها إلى تحقيق طموحاته في التسلسل إلى الأعداء ونهب الإبل من بين البيوت ليلاً متحملاً في ذلك مشقات جسيمة ومخاطر جمة:

ياعبيد دونك شوئت بي هلاله شافت بوجهي ياعضيدي سهوم
وجهي مسودته لواهيبي لاله من كثر ما نطح لهيب السموم
وان قيلولوا ربعي بخطو السلاله أنا رقيببتهم بعالي الرجوم

(١) درقناها: اختطفناها بخفة دون أن يشعر بنا أصحابها. خزائنا: ما يعجبنا وما نختاره ونتقبه. كالحني مرهفات: يقصد السيوف فيها انحاء وسنانها رفيف، حاد. عدايلنا: الإبل نتخذها للحلب. طلايق: غنيمة لهم لأنهم هم الذين أطلقوا عقلها ونهبوها. المنومل: ملح البارود. اقفن بالدم الحمر معذرات: خيل أصحاب الإبل انهزمت بركابها يأسين من استرداد إبلهم بعد إصابات سالت منها دماؤهم وبعدما أبدوا مقاومة وبذلوا جهداً يستحقون معه العذر.

اخْلَى الباقِي لربِعي واشـوم
أنا نطِيحُ للعِيالِ القروم^(١)
غنايمه بايمان ربِعي فُـسـوم
نمشي على عاداتنا والسلوم

وله قصيدة أخرى في نفس المعنى منها قوله:

ترى السلام البرح ما فيه منقود
حتى تَعُدُّ وجيها لو غدن سود
وهذه من المواضع المفضلة لدى فرسان العرب منذ العصر الجاهلي حتى عهد

والى قـضى مانا وياقي بلاله
والى حصل عند الركايب ظلاله
كم شـيخ قـوم ناثيرين دلاله
ياما عطينا كل وضحا جلاله

سلام يانيله بوسط الجماعه
ليته تُبارينا على الهجن ساعه
قريب. يقول القتال الكلابي اللص:

لدى السير منها لَمَّةً وبنانُ
طريد دم يرمى بك الرجـوان
تَبَدَّلَ مُرَّ العيش بعد لِيان

تقول ابنة البكري لما بدا لنا
أراك ظَلَلْتَ اليوم أسودَ شاحباً
أخا سفر يشكو الكلال ركابُه

ويقول عبيد بن أيوب العنبري اللص:

مُخَضَّبَةُ الأَطرافِ خُرْسُ الخلائلِ
يهيم بربات الحجال الهراكل
على الجَدْبِ بساما كريمَ الشمائلِ

تقول وقد أَلَمْتَ بالإنس لَمَّةً
أهذا خليل الغول والذئب والذي
رأت خَلَقَ الأُدراس أشعثَ شاحباً

ويقول عبدالله ابن هذال القريفة:

ولا هَمَّها صمغِ مضاربيهن زَمَ
غير الهوى والعِرسِ ما هَمَّهن هم
ما بي علي يزود لو هو ولد عم
واوردَ الهِيَّابِ في قاعةِ الجم^(٢)

ياهُنِّي نوره ما شِقت بالمعايير
وياهُنِّي لَمَّاتِ البُنِّي الغنادير
وانا همومي في مَناحي المناعير
أصل رُوحِي صَلَّ دلو الحـدادير

ويقول عبيد ابن صمعان العجمي من الهادي:

ياعيون الصقر بايد اللي يهدَه
تفرشين فريش فوقه مخدَه
عند تالي الجيش يالظفران ردَه
والهداوي بيننا قفش وعده
يوم بعض الناس ينشب بالاشدَه
يوم جتنا الخيل بالفرسان كده
كل مئا يعتزي في صلب جده^(٣)

يادقبيق الرمش يا صافي الجبين
ما دريتي يا الغضي باللي يجيني
شين وجهي قولهم يا المستحين
لى غدى للميزر الغتما رطين
مرخص بالروح والقاسي يلين
ونطحه البارود بالقلب الرزين
وانثنى من دون سلسات القرين

وفي الغزوات البعيدة غالبا ما يصطحب الأخ أخاه ليكونا جنا إلى جنب يدافع

(١) سهوم: آثار المشقة والتعب. لاله: الشمس. السلاله: ظل الجبل. بلاله: بقية قليلة. اشوم: أعزف عنه. ظلاله: معركة حامية. القروم: الشجعان.

(٢) المعايير: الغزوات البعيدة على الإبل. صمغ: نوع من البنادق. مَناحي المناعير: مجاراتهم ومباراتهم في الفضائل والشجاعة. أصل رُوحِي: أهدم بلا مبالاة. قاعة الجم: البئر المليئة بالماء، وهو هنا كناية عن ميدان المعركة.

(٣) ينشب بالاشده: يختبئ وراءها. كده: هجوم الخيل هجمة واحدة. سلسات القرين: الإبل، كناية عن سرعة سيرها وسلاسته.

أحدهما عن الآخر وينقذه في ساعة الخطر، وإذا كان أحدهما عقيدا يكون الآخر مساعدا له. وهذا ما كان يفعله دريد بن الصمة مع أخيه عبدالله. وفي أحد المواقف الحرجة أنقذ دريد أخاه عبدالله وسجل الحادثة في أبيات منها قوله:

غداة دعاني والرماح يُنْشَنُه كوقع الصياصي في النسيج الممدد
وكنت كذات البور ريعت فأقبلت إلى جذم من مسك سقّب مجلّد
فطاعنت عنه الخيل حتى تبددت وحتى علاني حالك الليل أسود

وهذا ما حدث أيضا لشليويح ابن ماعز العطاوي في أحد معاركه مع البقوم حيث أصيب إصابة بالغة وسقط في الميدان وكاد فرسان البقوم أن يقضوا عليه لولا أن أخاه بخيت أنقذه. ويسجل العبيد هذه الحادثة كما يلي:

ولنذكر قصة جرت لشليويح وقاعد بن جرشان، وكانوا زعيمين كل زعيم قبيلته. وكان شليويح يلازمه أخاه بخيت وكان ساعده الأيمن في كل مغازيه ووقائعه. فمن ذلك ان شليويح جمع قبيلته للسفر الى تربه ليشترون منها التمر في وقت جذاذ النخل. فوصل تربه وباع جلائبه واشترى منهم تمرا وحمل جماله. فلما اراد المسير عزمه جاسر بن محي شيخ البقوم القاطنين تربه وهم اهل النخل ودعى معه قاعد بن جرشان ليحضر كرامته لشليويح ومن معهم. فحضروا عنده فلما تناولوا طعام العشاء ادار عليهم البخور فبدأ بقاعد يمدّها اليه لانه هو الذي يليه فقال قاعد مستهزئا: عدّها على شليويح انا بخوري عجاج الخيل وانا اخو نوضا مهوب دخان عود. فرد عليه شليويح قائلا: تقول كذا يا قاعد؟ فرد عليه قاعد بقوله: اقله واطوله. فرد عليه شليويح قائلا: والله لئن قسم الله يا قاعد ان تنظرني فوق فرسي الجازي ازعج مغاتيرك والشهر هذا ما وفا. فرد عليه قاعد بقوله: والله يا شليويح لين شفتك فوق ظهر الجازي تزعج مغاتيري ان تنظرني فوق فرسي الوزنا مخاشرك فيه ويد الله ومن تكون معه. فانقطع كلامهم على ذلك وسافر شليويح بمن معه من قبائله الى اهله. فلما وصل عند اهله ووضع ما معه من الأحمال ارسل الى عربانه يستنهضهم على الغزو معه. فغزا وعدة جيشه ٤٠٠ مطيه وعدة خيله ١٤٠ فرسا. فعمد الى منزل قاعد بنفسه وعربانه. فلما وصل الى حروة منازلهم اتاه أت بانهم نزلوا في موضع اخر ومعه قبيلتين وهم سبيع والشلاوى. فاغار عليهم وهم نازلين قبل ان يبنون البيوت وابلهم قريبه منهم. ففزعوا على شليويح ومن معه وتطاردت خيل الفئتين باشد ما يكون من الحماس. وتناطح قاعد وشليويح على فرسيهما وكل منهما اطلق سهمه على صاحبه وهي الرماح. اما سهم شليويح فهو انطلق من يده بالكليه فلم يصب قاعد منه شيئا. واما قاعد فطعن شليويح فوق الثدي وخرج السنان مع لوح كتفه وخر صريعا من فرسه. وكان اخوه بخيت يطارد خيل العدو لاهيا عنه فاخبروه بخبر اخوه فاتي مسرعا لآخيه. فاعترضه فارسا مشهور اسمه راجح بن متروك فقتله بخيت وغنم فرسه قبل ان يصل الى اخيه. فلما وصل الى اخيه واذا اصحاب شليويح عنده يدافعون عنه بعدما وقع على الارض فنزعه من الارض واركبوه مع بخيت على فرسه ثم ضمه على صدره وانهمز به (عبيد: ٢٨٨-٩).

يقول بخيت ابن ماعز العطاوي يصف تلك المعركة وكيف أنقذ أخاه شليويح وكسب جواد ابن متروك ويلوم زامل وابن هذال وابن البتيرا الذين فروا من المعركة التي وقعت في موقع يدعى لبة العاقر بين تين وحرّة الجوهريّة:
في لبة العاقر جرى لي تفاكير ما بين تين وحرّة الجوهريه

وعَيَّوْا على تاليه قومٍ لظيِّه
يتلون ابن جرشان ذيب السريه
ولا ينعدل سيل النحا عن نويه
واظهرت شيخ كاسياته دميّه
وجواد ابن متروك صفرا ثنيّه
ولا منهم اللي لدّ بالعين ليّيه
وابن البتيرا هج قدمه شوويه
ما الوم زامل شاف وخره وحيه^(١)
ومن عقب ما هي ضيق راحت فضيه
ومتلما نحى بخيت زامل وابن هذال وابن البتيرا ليساعدوه على انقاذ أخيه فلم
يجيبوه كذلك عبيدالله بن الحر الجعفي نحى الشاكري بن كامل لكنه لم يفده شيئا:

فَوَلَّى حثيثا ركضه لم يُعْرَج
خيول كرام الضرب أكثرها الوجي

وهذا المشهد من المشاهد التي تتكرر كثيرا في مناوشاتهم، انظر إلى قول حوط

بن جسر العذري:

أخذت ذا الخرطوم واشتد النظر
وأقلت الشيخ وقد كان انعفر

ومن القصص المتواترة فيما يتعلق بإظهار الأخ لأخيه وإنقاذه في المعركة ما

حدث مع غنيم ابن بطاح وأخيه غنام والتي نوردها كما أوردها منديل الفهيد:

هُزمت مطير في بعض المعارك ودُبحت فرس غنام بن بطاح من العبيات فصار أخوه غنيم
ينحى بعض جماعته ويهيب بهم لإنقاذه إلا أن كل فارس مشغول بنفسه والعدو يقتل كل
من أمسك به فخف غنيم لإنقاذ أخيه وجالد عنه مع أنه سمع العدو يعرض المنع وهو أن
يستسلم المحارب بشرط النصف أو البندق أو الذلول أو الرقبة ويستسلم المحارب إذا
صوت رجل باسمه وقال فلان بوجهي على ذلك الشرط (فهيد ١٩٨٥: ٤٣-٤٤).

ولما أنقذ غنيم أخاه غناما قال هذا القصيدة يخاطب طامي القريفة:

راعيه ما يلحق شليل العباة
على طريقه تشبع الحايما
جاكم خبرنا والعلوم الثبات
وتصرم ركبهم مقفيات
لى واحسايف عشقهم للبنات
ركابكم وانصافهن سالمات
إلى غدى غنام تقمح حياتي
طاحت وراعيتها سواة الوقاة

خذنا قطع فيه رمس المغاتير
لحقوا هل البل فوق قب عياطير
قلنا ميامين وقالوا مياسير
رديتها يوم السبايا مناخير
رديتها والحق شيخ المظاهير
ناديت في حسي صياح بتشهير
يوم ان ابن هذال يرمى المعاذير
وزامل على الصفرا عيونه مطاير
حديتهم حد الظوامي على البير

ومثلما نحى بخيت زامل وابن هذال وابن البتيرا ليساعدوه على انقاذ أخيه فلم
يجيبوه كذلك عبيدالله بن الحر الجعفي نحى الشاكري بن كامل
دعوت إلى الشاكري ابن كامل
وإن هتفوا باسمي عطفت عليهم

وهذا المشهد من المشاهد التي تتكرر كثيرا في مناوشاتهم، انظر إلى قول حوط

بن جسر العذري:

لما دعاني دعوة عمي زفر
فلم أزل أضربهم حتى انكسر

ومن القصص المتواترة فيما يتعلق بإظهار الأخ لأخيه وإنقاذه في المعركة ما

حدث مع غنيم ابن بطاح وأخيه غنام والتي نوردها كما أوردها منديل الفهيد:

هُزمت مطير في بعض المعارك ودُبحت فرس غنام بن بطاح من العبيات فصار أخوه غنيم
ينحى بعض جماعته ويهيب بهم لإنقاذه إلا أن كل فارس مشغول بنفسه والعدو يقتل كل
من أمسك به فخف غنيم لإنقاذ أخيه وجالد عنه مع أنه سمع العدو يعرض المنع وهو أن
يستسلم المحارب بشرط النصف أو البندق أو الذلول أو الرقبة ويستسلم المحارب إذا
صوت رجل باسمه وقال فلان بوجهي على ذلك الشرط (فهيد ١٩٨٥: ٤٣-٤٤).

ولما أنقذ غنيم أخاه غناما قال هذا القصيدة يخاطب طامي القريفة:

ياراكب اللي ما اتلفوه المداوير
ملفاك اخو طفله زبون المقاصير
ليته حضر يوم جرى به مخاسير
نخيت ناهس والربوع المناخير
ربع باثرهم يشبع الذيب والطير
نادى منادى المنع له قلت ياخيير
رديتها ما عاد هي بالتفاكير
طقت سابق ناصر كنها الطير

(١) فيه رمس المغاتير: فيه عينة قليلة من الإبل الوضع. لظيه: يصعب الوصول إليهم لشجاعته مثلما يصعب الوصول إلى لظى النار. قب عياطير: صفة الجياد. ولا ينعدل: لا يمكن رده. سيل النحا: السيل المتحدر من عل. لد: نظر. عيونه مطاير: نظراته زائغة لهول المعركة.

وتقامصن معسكرات المسامير اذبالهن مثل الكرب مقفيات
أخوي كافيني ليال المعاسير ارقد بظله واتفرش عباتي
لومات هموا بي طوال الدناقير يلقون فييه مثل فنق العباة^(١)
وإذا كان الأخ غائبا عن الوقعة ولم يحضر قتلة أخيه فإنه يتمنى لو كان حاضرا
ليظهره وينجيه ويلوم من حضر من قومه على التخلي عنه ويتوعد بأخذ الثأر. قال
غلفاء معدي كرب في رثاء أخيه شرحبيل:

إن جنبي عن الفـراش لناب كتجافي الأسر فوق الظراب
من حديثنما إلي فما تر قأ عيني وما أسيغ شرابي
مرة كالذعاف أكتمها النا س على حرمة كالشهاب
من شرحبيل إذ تعاوره الأر ماح من بعد لذة وشباب
يا ابن أمي ولو شهـدتك إذ تد عوا تميما وأنت غير مجاب
لشـدت من ورائك حـتى تبـلغ الرحب أو تبـر ثيابي
وفي نفس المعنى يقول متعب ابن جبرين يذكر مقتل أخيه لأمه تريحيب ابن شري
(وينطقونها تراحيب بلهجتهم):

ياهل الرمك زيدوا لهن بالبريره نبي ندور فوقهته تراحيب
ياليتني والموت ما فيه خيره حضرتهم والخيل غاد جناديب
حضرتهم من فوق حمرا ظهيره والله لاعشني جايح النسـر والذيب
لومي على اللي يحتمون الجريره ما ريعوا له دايفين المغاليب^(٢)

(١) تصرمن: ولت هاربة في كل اتجاه. إلى غدى غنام تقمح حياتي: تبا لحياتي بعد ممات أخي غنام. تقامصن: جفلت وتراجعت خائفة. معسكرات المسامير: الخيل لأنهم يثبتون حذاءها بالمسامير تثبيتا جيدا، والمعسكر هو الشيء المثبت تثبيتا جيدا. طوال الدناقير: كناية عن من يتربصون به الشر كما تتربص طوال الدناقير وهي الطيور الجوارح بفرستها. والعجز الأخير من البيت يقول إن هؤلاء بعدما يموت أخاه سوف يجدون عليه مدخلا وطريقا لإيذائه والنيل منه.

(٢) البريره: ما يقدم للخيل من شعير وعليق وحليب الإبل. جناديب: أرسال متتالية لكثرتها. الجريره: القوم المنهزمون. دايفين المغاليب: من يصنعون ملح البارود.